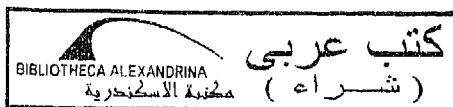


فن المسرحية

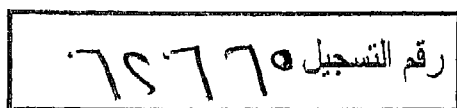
من خلال تجاربي الشخصية

على احمد باكثير





على أحمد باكثير



٢٦٥
٨٥٨
٥١٥
٢٦

فن المسرحية

من خلال تجاربي الشخصية

تأليف

على أحمد باكثير

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أرى لزماً على أن أفتتح حديثي بتوجيه الشكر إلى هذا المعهد العربي الكريم على حسن ظنه بي إذ اختارني لأحضركم يا طلاب العرب في فن المسرحية ولا أكتمكم أنني حاولت الاعتذار في أول الأمر ، لأنني وإن كنت متمرساً بكتابة المسرحيات فلست بناقد ولا أحب أن أكونه ، كما لا أحب أن ألقى دروساً أو بحوثاً موضوعية في فن المسرحية أو فن التأليف المسرحي ، فذلك شيء يختلف عن طبيعتي كل الاختلاف . غير أن مندوب المعهد الذي اتصل بي وهو الأخ الكريم الدكتور إسحق الحسيني تفضل فأقنعني بأن ذلك ليس هو المطلوب مني وإنما المطلوب مني بوجه خاص هو أن أحدث الشباب من طلاب العرب عن تجاربي الشخصية في الكتابة المسرحية . فلا يعدو عملي أن يكون استحضاراً لما مر بي من التجارب في هذا الميدان . فما وسعني إلا القبول على شيء من التحفظ والتهيب ، وذلك لما أنا مبتلى به من ضعف الذاكرة وصعوبة استحضار تجاربي الماضية ولكني سأبدل قصارى جهدي وعلى الله التكلان .

بدء اشتغالى بالتأليف المسرحى :

لكى أحدثكم عن بدء اشتغالى بالتأليف المسرحى ينبغى أن أسرد لكم مجملًا من تاريخ حياتى الأدبية . كانت نشأتى الأدبية الأولى فى حُضر موت حيث بدأت أنظم الشعر منذ بلغت الثالثة عشرة من عمرى . وكان جل اهتمامى بالشعر ؛ ومبلغ اجتهداى للتبريز فيه ، فلم أدع ديوانا لشاعر من الأقدمين أو المحدثين وقع فى يدى إلا قرأته التهاماً . وكان مثلى الأعلى فى الأقدمين أبو الطيب المتنبى وفى المحدثين أحمد شوقى غير أنى لم يتح لى الاطلاع على شىء من مسرحياته إلا بعد ما رحلت عن حُضر موت فأقمت برهة فى الحجاز ، فكانت مسرحيات شوقى هى أول ما عرفت من هذا الفن المسرحى . فكان عندى عجباً أن أرى الشعر الذى كنت أعرفه للتعبير عن ذات الشاعر أو لوصف شىء من الأشياء مهما يكن موضوعياً فلا بد أن يشوبه شىء من ذاتية قائله - كان عندى عجباً أن أرى هذا الشعر وقد تحول إلى حوار ومساجلة بين اثنين أو أكثر على نحو يجعل كل شخصية تعبر عن ذاتها ووجهة نظرها ، ويضعها فى صراع مع غيرها من الشخصيات : ويدور كل ذلك حول قصة واحدة هى مادة هذا العمل الشعرى الذى يؤلف ديواناً صغير الحجم يختلف عن الدواوين المألوفة حيث إنه ينتظم موضوعاً واحداً ، ولا يتناول موضوعات مختلفة كتلك الدواوين .

كان لاطلاعى على هذه المسرحيات الشوقية أثر كبير فى نفسى فقد هزنى من الأعماق وأرانى لأول مرة فى حياتى كيف يمكن للشعر أن يكون ذا مجال واسع فى الحياة حين يخرج عن نطاق ذاتية قائله إلى عالم

فسيح يتسع لكل قصة فى التاريخ أو حدث من الأحداث . وكنت إذ ذاك ممتلئاً بالثورة على ما كان عليه حال بلدى حضر موت فى التخلف عن ركب الحضارة والتأخر فى كل ميدان من ميادين الحياة ، وبالسخط على الأوضاع الاجتماعية السائدة هناك ، مضافاً إلى ذلك كله أزمة نفسية أليمة من جراء وفاة شخص عزيز علىّ هو زوجى الأولى التى اختطفها الموت وهى فى بواكير الشباب ، وكنت قد رثيتها فى قصائد جمّة كما عبرت عن سخطى على الأوضاع السيئة فى بلدى فى قصائد أخرى كثيرة حسب المناسبات ، وكنت خليقاً أن أنظم مزيداً من القصائد فى هذين الموضوعين اللذين كانا ملحين علىّ لو لم أكن اطلعت على ذلك النموذج الغريب فى استعمال الشعر لغير ما كان يستعمل له القديم فلم أشعر إلا برغبة جامحة فى محاكاة هذا اللون الجديد الذى وجدته عند شوقى واتخاذ ما كان يعمل فى نفسى من الأحاسيس والمشاعر المتصلة بالأمرين السابق ذكرهما مادة لموضوع هذه المحاكاة . فكان أن كتبت مسرحية شعرية أسميتها « همام أو فى عاصمة الأحقاف » . وذلك فى مدينة الطائف حيث كنت أقضى فترة الصيف بين طائفة من أدباء الحجاز أخص منهم بالذكر الأستاذ حسن محمد كتبى الذى نعمت بصحبته فى تلك الأيام فكنت أطلعه على ما أنظم من المسرحية أولاً بأول وأشهد أنه كان لتشجيعه فضل كبير فى إنجاز هذا العمل .

وقد كتبت هذه المسرحية دون أى إلمام سابق - كما وصفت - بفن المسرحية - بله أصول التأليف المسرحى ، فكانت النتيجة - وهذا ما يهمنى أن ألفت نظركم إليه - قصائد ومقطوعات من الشعر بين رقيق

- ٦ -

وجزى يجمعها موضوع واحد وينظمها إطار واحد . ولكن لا يمكن تسميتها مسرحية إلا على سبيل التجوز لافتقادها إلى المقومات الأساسية للمسرحية من بناء وحركة وحوار ورسم شخصيات .

وهذا يفتح باباً للسؤال الآتى : هل على من يريد أن يتصدى للكتابة المسرحية أن يدرس أولاً أصول التأليف المسرحى أم يكفى فى ذلك وجود الموهبة لدى الكاتب ؟ والجواب على ذلك أنه لابد من وجود الموهبة على أى حال ولكنها لا تكفى وحدها بل يجب الإلمام بأصول التأليف المسرحى سواء بدراستها فى الكتب الموضوعية لهذا الغرض ، أو عن طريق تتبعها وتأملها فى النماذج الصالحة من أعمال الكتاب المسرحيين المشهود لهم بالفضل والتبريز واستخلاص القواعد والأصول من تلك النماذج . وهذه الطريقة الثانية أفضل وأنجح . وأكمل من ذلك كله أن يجمع الكاتب بين الطريقتين بأن يكثر من قراءة النماذج الصالحة ويعيد قراءتها والتأمل فيها مرة بعد مرة وأن يدرس فى الوقت ذاته الأصول النظرية للتأليف المسرحى ويحاول تطبيق ما يقرأ منها على النماذج التى بين يديه .

دراسى الأدب الإنجليزى :

كانت ثقافتى الأولى عربية خالصة وظلت كذلك حتى حضرت إلى مصر فعزمت على أن أدرس الأدب الإنجليزى لما بلغنى أنه غنى بالشعر الرفيع ، فقد كانت غايتى إذ ذاك بعد أن أصقل موهبة الشعر عندى وأعد نفسى لأكون شاعراً كبيراً وعسى أن تفتح لى هذه الدراسة آفاقاً جديدة فى الشعر . فالتحقت بقسم اللغة الإنجليزية فى كلية الآداب

— ٧ —

بجامعة القاهرة وما أن سلخت عاماً فيها حتى وجدتنى فى بلبلة نفسية من حيث نظرتى إلى الشعر الذى كنت أنظمه وأنشره فى الصحف فقد غيرت هذه الدراسة من نظرتى لمفهوم الأدب كله . فأخذت أعيد النظر فى المقاييس الأدبية التى كانت عندى من أثر ثقافتى العربية ويهمنى هنا أن أخص بالذكر ما يتعلق بدراسة المسرحية فقد انجذب قلبى إليها أكثر من انجذابى إلى غيرها من فنون الأدب الأخرى كالقصة والأقصوصة والملاحم والشعر القصصى وكان يستهوينى بوجه أخص أعمال شكسبير ، ولعل مرجع ذلك - بالإضافة إلى مكانته المعروفة فى هذا الفن - أنه شاعر وأنا كنت إذ ذاك ما زلت أعتبر الشعر ميدانى الأول فلا غرو أن أفتن بشكسبير باعتباره يجمع بين الفن القديم الذى أحبه وهو الشعر وبين هذا الفن الجديد الذى بدأت أكتشف فى نفسى الاستجابة إليه وهو فن المسرحية .

وقد نتج عن هذه الأزمة النفسية التى عايتها من جراء تغير مقاييسى الأدبية - كما أشرت - أن انقطعت برهة عن نظم الشعر ، تمت فى خلالها تجربة جديدة بالنسبة إلىّ ثم تبين أنها جديدة أيضاً بالنسبة إلى مستقبل الشعر العربى الحديث وأعنى بها محاولة إيجاد الشعر المرسل فى اللغة العربية .

واتفق فى ذلك الحين أن حدث حادث فى مقاعد الدرس كان له أثر كبير فى دفعى إلى التعجيل بهذه المحاولة وخلاصته أن أحد مدرسينا الإنجليز تحدث ذات يوم عن الشعر المرسل وكيف أن اللغة الإنجليزية اختلفت بالبراعة فيه والتفوق على سائر اللغات وكيف أن الفرنسيين

حاولوا محاكاته فى لغتهم فكان نجاحهم محدوداً ، ثم قال : ومن المؤكد ألا وجود له فى لغتكم العربية ولا يمكن أن ينجح فيها فاعترضت عليه قائلاً : أما إنه لا وجود له فى أدبنا العربى فهذا صحيح لأن لكل أمة تقاليدها الفنية وكان من تقاليد الشعر العربى التزام القافية .

ولكن ليس هناك ما يحول دون إيجاده فى اللغة العربية فهى لغة طيبة تتسع لكل شكل من أشكال الأدب والشعر . فاكتمى بأن أعرض عنى وشعرت عندئذ بأن علىّ أن أتحدى هذا الزعم وأدحضه بالبرهان العملى ، وانصرفت من الدرس وقد ملك علىّ هذا التحدى كل أمرى ، فبدأ لى أن خير ما أبدأ به فى هذا السبيل هو أن أترجم فصلاً من شكسبير على هذه الطريقة فذلك أجدر أن ييسر لى هذه التجربة وأعون على النجاح فيها .

وأحب أن أذكر لكم هنا بين قوسين أننى قد سبق أن ترجمت له فصولاً من مسرحيته (الليلة الثانية عشرة) ولكن على طريقة الشعر المقفى المألوف ونشرت بعض ذلك فى مجلة الرسالة (رسالة الزيات) وهذا بالطبع يختلف عن المحاولة الجديدة التى بين يدى . وكنا فى تلك السنة ندرس مسرحية روميو وجولييت فلا غرو أن وقع اختيارى عليها فاخترت مشهداً من مشاهدتها وبدأت أفكر فى ترجمته فاتفق أن جاء الوزن فى بحر المتقارب (فعولن فعولن فعولن) دون أن أعى ما ينطوى عليه ذلك من الدلالة . ثم مضيت فى عملى مرسلًا نفسى على سجيته فى اختيار ما يناسب المقام من البحور والأوزان فاكتشفت بعد لآئى أن البحور التى تصلح لهذا الضرب الجديد من الشعر هى تلك التى

تتكون من تفعيلة واحدة مكررة كالكامل والرجز والمتقارب والمتدارك والرمل ، لا تلك التى تتألف من تفعيلتين مختلفتين كالسريع والخفيف والبسيط والطويل فإنها لا تصلح .

وسأورد لكم شيئاً من هذه الترجمة على سبيل المثال .
هذه جوليت وهى توشك أن تحتسى السائل المنوم الذى أعطاه لها
الراهب لتكون فى هيئة الموتى مدة اثنتين وأربعين ساعة ريثما يحضر
زوجها روميو فينطلق بها من القبر .

الوداع الوداع ! إلهى يعلم وحده .

أين يجمعنا الدهر بعد اليوم .

هذى برداء الخوف النافض راجفة فى عروقى

حتى لتكاد تجمد سعر حياتى .

فلأنادهما لتعودا إلى لتسكين روعى .

يا حاضن ! لا لا فماذا عساها تصنع عندى ؟

إن هذا الدور القانط لا بد لى أن أمثله وحدى .

يا جام هلم إلى !

ربما لا يصنع لى شيئاً ألبتة هذا المزيج .

أفأغدو غداة غد زوج باريس ؟

كلا . يأبى خنجرى هذا . فلتبق إلى جانبى (تضع خنجرها بجانبها)

ربما كان سماً أراد به القس ألا أعيش .

لئلا يكون زواجى الجديد وبالا عليه .

إذا علموا أنه قد زوجنى من قبل بروميو

- ١٠ -

أخشى هذا ، بيد أنى غير مصدقة أن يكون .
 فهو لم يبرح معدوداً بعد من الصالحين .
 ربما أن شربت الجام وألقى بى فى الضريح .
 أستيقظ قبل مجيء حبيبى روميو لينقلنى .
 ويل أمى إذن من مشهد يوم مهول !
 أو لست أموت من الاختناق
 فى ذاك القبر الذى
 لا يهب بفوهتها النكراء نسيم عليل ؟
 أو إن لم أمت فهى أم الدواهى : أليس حرى
 أن هول الموت مضافا لهول الليل البهيم
 مضافا لروحشة ذاك المكان الفظيع ،
 ذلك المستقر القديم وذاك القبر المخيف ،
 حيث منذ مئات السنين عظام جدودى
 منضودة بعضها فرق بعض هناك .
 حيث تيبالت ثم غريض الجراح
 لقى يتفصد فى كفيه صديدا وقيحا .
 حيث الأرواح ترود - كما يزعمون -
 خلال المقابر فى ساعات من الليل معلومة .
 ويلاه . أليس حرى إن تيقظت قبل الأوان .
 أما روائح منتنة أو صياح مخيف
 كمثل صياح (أبى الروح) يبحث من أرضه

- ١١ -

فيراع له السامعون فينطلقون مجانين .
أواه إن استيقظت وحولى هذى المرائى التى
تقشعر لها الأبدان ، أليس يجن جنونى
فألعب بالمتناثر من أوصال جدودى .
وأقصد نحو الممزق تيبالت أنسله من أكفانه .
ثم أعمد فى هذه السورة العظمى
لفقار نسيب كبير فأحملها كاهراوة
أحطم رأسى بها وأطير دماغى شعاعا !
ويكأنى أرى شبحا لنسيبى تيبالت
ينشد روميو الذى شكه بذباب حسامه
قف يا تيبالت مكانك ! هأنا يا روميو جئتك !
أنا شاربة هذا من أجلك !

إخناتون ونفرتيتى :

وأحسست بعد أن أتممت هذا العمل ورضيت بعض الرضا عن نجاح
هذه التجربة أن قد آن الأوان لأؤلف مسرحية على هذه الطريقة فوقع
اختيارى على موضوع إخناتون الذى استهوانى تاريخ حياته وحركته
الدينية وثورته على كهنة آمون وتبشيريه بالحب والسلام . والجديد فى
ذلك أننى التزمت بجرا واحدا فى هذه المسرحية هو البحر المتدارك الذى
أدركت من تجربتى الأولى أنه أصلح البحور كلها لهذا الضرب .
وغنى عن البيان أن هذا العمل جاء أكمل بكثير من مسرحية

« همام » التى ألفتها فى الحجاز وقد ظهر فيه تأثرى بشكسبير الذى كنت أحتذيه إذ ذاك سواء فى العلاج أو فى استعمال الشعر المرسل . ولكن هذا الشعر المرسل لم يستقبل عند ظهوره بالترحيب أو الاستحسان إلا من قبل المرحوم الأستاذ إبراهيم المازنى الذى تفضل رحمه الله فكتب مقدمة للمسرحية أشاد فيها بهذه التجربة فى الشعر المرسل وصلاحيته للمسرحية . وكنت أظن أننى سأتابع كتابة المسرحيات بهذا الشعر غير أن تجاربى جعلتنى بعد ذلك أقطع بأن النشر هو الأداة المثلى للمسرحية ولا سيما إذا أريد بها أن تكون واقعية . وأن الشعر لا ينبغى أن يكتب به غير المسرحية الغنائية التى يراد بها أن تلحن وتغنى أى « الأوبرا » .

الواقع أن المسرحية الشعرية - أو بعبارة أدق - المسرحية المنظومة لم يعد لها مكان اليوم اللهم إلا عند عدد قليل جداً من الكتاب مثل ت . س اليوت وماكسويل أندرسون . حقا كان الشعر لغة المسرح عند كتاب اليونان والرومان وكان كذلك عند شكسبير وأقرانه فى العصر الإليزابيثى وعند راسين وكورنى فى فرنسا ولكن هذا التقليد وهو التزام الشعر فى المسرحية قد مات من عهد طويل ، وإن ظلت المحاولات تبذل لإحيائه منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم . ومن أشهر من حاول ذلك الشاعر الإيرلندى الكبير يتس الذى كان يعتقد أن إحياء الشعر فى المسرح هو الطريقة الوحيدة لإنقاذ المسرح من غلبة الاتجاه الدهنى عليه ولإعادة الوقود العاطفى إليه وقد نجح فى ذلك غير أن نجاحه هذا كان مرجعه إلى الظروف التى صاحبت انبعاث الروح القومية الإيرلندية

ولذلك ما لبثت الحركة المسرحية فى إيرلندا أن انقلبت بعده من الاتجاه الشعرى إلى الاتجاه الواقعى .

ومعظم هذا الشعر الذى أشرنا إليه هو الشعر المرسل وهو شعر فيه تحرر وانطلاق وليس مقيداً بإسار القافية فهو أصلح للمسرحية إن كان لابد من استعمال الشعر فيها . وكان الممثلون فى تلك العهود يلقونه بصورة تقرب من إلقاء النثر فلا يكاد الرجل العادى يدرك أنه شعر موزون . وكان الإلقاء فى التمثيل عموماً يعتمد إذ ذاك على التفتيح والجلجلة وتفخيم الألفاظ وذلك قبل أن تنشأ الطريقة الواقعية فى الإلقاء والتمثيل .

وعندى أن قيمة هذا الشعر فى المسرحية تتلخص فى أن التزام الكاتب المسرحى لقيود النظم قد يمنحه قوة فى التعبير لا يمنحها له الكلام المنثور المناسب فى سهولة ويسر . ومثل ذلك مثل الماء الذى يتفجر من صنوبر ضيق يكون أقوى اندفاعاً مما لو كان ينهمر من فتحة واسعة . وهذا بالطبع حين تتساوى الطاقة التعبيرية فى الحالتين حيث تصدر الطاقة من كاتب واحد أو من كاتبين متقاربين . هذا فى رأى هو كل الفرق بين الشعر المرسل والنثر . فرق يتعلق بالكاتب نفسه وما يعطيه هذا أو ذاك من قوة أو ضعف . أما بالنسبة للجمهور حين يشاهد المسرحية فلا أحسب أن هناك كبير فرق بين أن يكون ما يسمعه نثراً أو شعراً مرسلًا ولا سيما إذا كانت طريقة الأداء فى التمثيل هى الطريقة الواقعية دون الطريقة الإلقائية المجلجلة .

وإذا كان هذا هو كل الفرق بين النثر والشعر المرسل فى استخدامهما كأداة للمسرحية فإن الفارق كبير واسع المدى بين النثر والشعر المقفى القائم على اتخاذ البيت وحدة نغمية مستقلة ، فهذا الشعر أبعد ما يكون عن الصلاحية ليكون لغة المسرح لأن استناده إلى البيت الكامل كوحدة مستقلة عن سابقه وعن لاحق له يعمل على تجزئة الوحدة التعبيرية وتقطيعها إلى وحدات متساوية مستقل بعضها عن بعض دون مراعاة لاختلاف الجمل المسرحية طولاً وقصراً . وينشأ عن ذلك أن الجمل المسرحية التى تكون أطول من أن يستوعبها بيت واحد تنشط فى بيتين تفصل القافية بينهما فصلاً واضحاً ليس من السهل على المستمع أن يغفل عنه . وكذلك الحال فى الجملة المسرحية التى تكون أقصر من أن تشغل بيتاً كاملاً فإما أن يصلها الكاتب بجملة مسرحية أخرى أو بجزء من جملة مسرحية أخرى وإما أن يضطر إلى الحشو لتكملة البيت .

وخلاصة ما سبق أننا إذا ما أردنا أن نوجد المسرحية الشعرية عندنا فإن أصلح أداة لذلك هو الشعر المرسل على الوضع الذى وصفناه من قبل وهو المستند إلى التفعيلة - لا البيت - كوحدة نغمية ، فتلاحق التفعيلات فى الجملة المسرحية الواحدة متصلة مترابطة دون نظر إلى الحيز الذى تشغله ، فقد تشغل ما كان يشغله بيت واحد أو أكثر أو أقل . شأنها فى ذلك شأن الجملة النثرية . ولتوضيح ذلك سأورد لكم نماذج لهذا الشعر من مسرحيتى إخناتون ونفرتيتى : هذا إخناتون وهو محزون لوفاة زوجته الأولى (تادو) يقص على والدته بعض ذكرياته معها .

- ١٥ -

فطفقت أقبلها قبالات الشهر الذى

غابته بأيامه ولياليه فى

نغرها المعسول اللذيذ وفى وجنتيها الموردين

وفى شعرها الذهبى الجميل . وكانت

تعد على وكنت أغالطها فى الحساب .

ويقول فى موضع آخر :

طالما كانت تستيقظ فى الأسحار فتكتم أنفاسها

وتقبل ما بين عينيّ فى رفق حتى لا توقظنى .

وأسارقها الطرف حيناً فحيناً فألمح فى شفيتها ارتعاش الصبى

قد اختلس الحلوى من مخدع جدته الشمطاء ،

وفى عينيها اغتباط الطفل تملأ من ثدى أمه ا

ثم يغزو التناؤب فاها الجميل ،

ويلوذ النعاس بأهدابها فتميل

إلى جنبى و تعود إلى نومها فى طمأنينة و غرارة .

ويقول :

ما أنس من الأشياء فلن أنسى

ما كنا نخرج فى أنفاس الصباح الجديد ،

إلى الروض المطلول فتنسب بين الغصون .

نبلل أوجهننا بالطل النضيد ،

ونسير على العشب المنصور ،

ونعدو هنا وهناك على المرج المسحور ،

- ١٦ -

ونجمع شتى الأزاهير ننظمها مثل الأكاليل ،
ونجري وراء الفراش الجميل
نطارده من غصن لغصن فأمسكه ، فتشير
علىّ بإطلاقه من جديد فأطلقه فيطير
فزنو إليه وفي فمها بسمّة بيضاء
كما ييسم الأريحي الكريم ارتاح لفك أسير .
ونحس بمس اللغوب فنقصد نحو الجدول
نقعد فوق صفاة على شطه ملساء .
فندلى أرجلنا فى الماء ونرسل أبصارنا فى الفضاء .
ويغنى لى فمها المعسول الصغير
على ألحان خريير الماء النмир
أغانى ميتانيا بين زقرقة العصفور ،
وتغريد الشحرور ووسوسة النسمة الجواس
خلال غصون الأيك النضير .

فى هذه النماذج ترون الجمل المسرحية فى معظمها طويلة منسوحة
يمكن أن يلقيها الممثل فى نفس واحد لو استطاع . وقد تبصرون فيها
بالقافية أحياناً ولكنها لا تجزئ الصورة ولا تتلاحق فى رتابة وجمود بل
تظهر هنا وهناك فى ومضات كالبرق الخاطف فتضاعف موسيقية الجملة
المنطلقة دون أن تجبسها أو تحد من انطلاقها والسيابها حتى منتهاها .
واليكم نموذجاً آخر من المسرحية لا يحتوى على جمل مسرحية طويلة
مطرودة بل يحتوى على جمل مسرحية متقطعة تعبر عن التوتر العصبى

- ١٧ -

والاحتدام الشعورى وذلك عندما رأى إختاتون انهيار الآمال التى علقها
على ما كان يدعو إليه من دين الحب والسلام فثار على ربه ثورة عاتية .

ما هذى النار التى تتضرم فى صدرى ؟

آه ما أقسى ألى !

ربى أين أنت ؟ أما تصغى لدعائى !

إن لم تشفق يا رب علىّ فأشفق على دينك .

أين لطفك بى ؟ أين عونك لى ؟ أين تأييدك ؟

ربى أين أنت ؟ أموجود أنت ، أم شبح ؟

ما كنت أظن إلهاً يسمعنى ويرانى

ليت شعرى أنشأتنى أنت أم أنا أنشأتك ؟

أنا من صنع يمينك أم أنت يا ربى من صنع خيالى ؟

(رعد وبرق)

أغضبت الآن ؟ أأسمعتك الآن ؟ أم هذا غضبى ؟

أين حبك ؟ أين سلامك ؟ ما كانا إلا طيفاً من خيال

وهماً باطلا وضلالاً أى ضلال .

(صاعقة تخر قريباً من القصر)

أرسلها صاعقة تطوينى لا أخشاك .

عدت لا أرجوك فكيف أخافك ؟

سأسل السيف ، سأعصى أمرك ، سوف أبيع القتال .

سأذبح أعدائى كهان آمون ومن والاهم

وناصرهم لا أبقى منهم نافخ نار .

- ١٨ -

إنهم ليسوا أعداءك بل أعدائي !
السيف السيف : ابغوا لى حور محب . أين حور محب ؟

المسرحية الغنائية (الأوبرا)

قلت فيما سبق أن تجاربى المسرحية جعلتنى أعدل عن الشعر جملة وأرى أن النثر هو اللغة الطبيعية للمسرحية وأن الشعر لا ينبغى أن يكتب به غير المسرحية الغنائية التى يراد بها أن تلحن وتغنى وهى (الأوبرا) .

وقد قمت أنا بتجربة من هذا النوع فى مسرحيتى (قصر الهودج) التى كتبتها بعد (إخناتون ونفرتيتى) بسنوات ، وبعد أن كتبت عدة مسرحيات قبلها بالنثر .

وفى قصر الهودج هذه حرصت على أن أجعل نظمها موسيقيا ما أمكن لتكون صالحة للتلحين وللغناء ، ولم أتقيد فيها ببحر واحد . بل استعملت مختلف البحور حسبما يقتضى المقام ، مراعىا فى ذلك مطابقتها لحالات التعبير المختلفة ومتحاشيا اطراد البحر الواحد والقافية الواحدة ما أمكن حتى لا تكون المسرحية مجموعة من القصائد مضموما بعضها إلى بعض كما حرصت على التنويع فى القوافى ليكون ذلك أبلغ فى التنعيم الموسيقى .

وسأورد لكم بعض أبيات منها على سبيل المثال :

هذا موقف بين سلمى البدوية وبين الخليفة الفاطمي (الأمر بأحكام الله) حين قابلها متكررا في زى رسول أعرابي ليخطبها للخليفة دون أن تعلم حقيقته فهي تحاوره في لطف لتتنصل من قبول خطبة الخليفة معتدرة بارتباطها بابن عمها ابن مياح . ولما لم يستطع إقناعها بقبول الخليفة انقلب يغازلها لنفسه بحسبانه رسول الخليفة .

هو : عشت يا سلمى طليقة لست للمدن صديقة

لا تحبين مغانيها ولا الدور الأنيقة
لطف الله بحالك قد فهمت الآن قصدى

هو : كيف لا أفهم ذلك والذي عندك عندي

أنا من رأيك يا سلمى وميلى مثل ميلك

آه لو تسمح لي الأيام يا سلمى بنيلك

أنت لي لست لغيري وأنا لست لغيرك

إن لي قلبا كقلبك

هي : عجا ... هل أنت مجنون ؟

هو : نعم يا نور عيني

أنا مجنون بحبك

قسما بالدر في ثغرك والورد بخدك

إننى عبدك يا سلمى حنانيك بعبدك

هي : (غاضبة) : حسبك اخرس قطع الله لسانك

هو : يا حياتى حفظ الله زمانك

أتسبين لسانا يتغنى بعبيرك وجمالك وشعاعك

— ٢٠ —

هى : بل لسانا كاذبا خنت به عهد — سد أميرك باحتيالك وخداذك
هو : المليك انسيه لا تجريه يا سلمى ببالك أو خيالك
أنا خير منه يا سلمى وأولى بجمالك ودلالك
هى : آه لو يسمع ما قلت الملك لحاك السيف من هذا الوجود
هو : كيف يحو السيف صباً هام بك حيك الخالد أولاه الخلود
هى : سيف مولانا الخليفة سيعافيك غدا من جنونك
هو : ليس بى للقتل خيفة فلقد ذقت الردى من عيونك

وينبغى أن يكون واضحاً مما ذكرنا أننا نقصد بالشعر هنا الكلام المنظوم . أما الشعر بمعناه الواسع ، الشعر غير المقيد بالنظم فهو صالح للمسرحية إذا اقتضى الحال فى بعض المواقف أن يرتفع التعبير إلى هذه المرتبة .

وهذا دليل آخر على إمكان استغناء المسرحية عن النظم فى كل حال ، لأن الكاتب المسرحى يستطيع أن يتبع أسلوب الشعر كلما احتاج إلى ذلك دون حاجة إلى النظم .

ولا ريب أن للموضوع دخلاً فى اختيار لغة المسرحية . فلا مجال للغة الشعرية مثلاً فى الموضوعات الاجتماعية والسياسية وإنما مجاها فى الموضوعات التى تعالج المشكلات الكبرى فى الوجود والتى تتجاوز حدود الواقع المادى والنفسى وتتطلع إلى آفاق الجهول أو تضرب فى سراديب اللاشعور . هناك حيث تقف اللغة العادية عاجزة عن التعبير أمام تلك المعارض الحافلة بالصور المتذبذبة والأخيلة الرفافة فلا تنفع فيها

غير لغة الشعر ، ولا يتعين فى الشعر هنا أن يكون نظما كما سبق ، بل يمكن أن يكون نثرا فالمهم أن يحتوى على جوهر الشعر والخاصية الأصيلة فيه .

وأحب أن أقرر فى هذا الصدد أن اللغة الشعرية التى فى مسرح شكسبير ليس مأتاها من أنه اتخذ أسلوب النظم فإنه لو لم يتقيد بالنظم لبقيت له لغته الشعرية وسبحاتها العلوية كما هى . وما كان إثارة النظم على النثر إلا جريا على العادة المتبعة فى ذلك العصر من التزام النظم فى المسرح أسوة بالمسرح القديم عند اليونان والرومان .

نشأة الفن المسرحى

نشأ الفن المسرحى عند جميع الشعوب : عند الهنود وعند الصينيين وعند اليونان فى ظل المعابد كجزء من ألوان العبادات التى يقومون بها . ثم تطور حين انفصل عن المعبد إلى الحياة فصار فناً مستقلاً عن الدين يقصد لذاته من أجل المتعة الفنية .

وعند بعض الأمم لم يقدر له الانفصال عن المعبد فاندثر لما اندثر المعبد نفسه كما حدث ذلك للمصريين القدماء فإن أقدم نص تمثلى معروف اليوم هو درامة أوزيريس وهى تحكى قصة هذا الإله المصرى القديم ومصرعه على يد أخيه (ست) الذى قطع جثته أشلاء وبعثها فى أنحاء الوادى ، وبحث زوجته إيزيس عن أشلاء زوجها ثم انتقام ابنهما حورس من عمه (ست) . فكان الكهنة يمثلون هذه المسرحية فى المعبد . وما لا

شك فيه أن لديهم مسرحيات أخرى كانوا يمثلونها فى معابدهم إلا أنها اندثرت لما اندثرت الديانة الفرعونية القديمة .

هل وجدت الدراماة عند العرب ؟

لم يحفظ لنا التاريخ شيئا عن وجود شيء من الدراماة عند العرب فى وثيقتهم الجاهلية ولعل مرد ذلك إلى أن الوثنية العربية لم تكن وثنية أصيلة إذ هى فى الواقع صورة مشوهة من دين قائم على التوحيد هو دين إبراهيم وإسماعيل ، ولذلك لم تتكون لها تقاليد عميقة كما كان الشأن لدى الوثنيات الأخرى .

فهذه مناسك الحج مثلا يمكن أن تعد صورة من صور الدراماة لتمثيل ذكريات إبراهيم الخليل وسيرة زوجته هاجر أم إسماعيل . وقد كان العرب فى الجاهلية يقومون بهذه الشعائر من قديم . ثم أقرها الإسلام بعد ذلك على أنها مناسك لحج بيت الله الحرام .

على أننا نلاحظ وجوه اختلاف بين هذه المناسك وبين الطقوس الدينية التمثيلية عند الشعوب الأخرى فبينما كانت هذه الطقوس يقوم بتمثيلها جماعة من الناس نرى هذه المناسك يقوم بها جميع أفراد الأمة العربية . أى أنهم لا يشهدون طائفة منهم تقوم بتمثيل هذه الذكريات بينما الباقون يتفرجون عليهم كما هو الشأن عند الشعوب الأخرى . وكذلك لا توزع الأدوار المختلفة بين أفراد تلك الطائفة كل واحد منهم يقوم بدور معين ، بل تقوم الأمة كلها بالتمثيل ويقوم كل فرد فيها بتمثيل الأدوار المختلفة كلها فالسعى بين الصفا والمروة مثلا هو تخليد لذكرى هاجر أم

إسماعيل إذ كانت تزدد بينهما باحثة عن الماء لتزوى به عطشها وعطش ابنها . فهذا دور من أدوار هذه الدراما وهو لا يسند إلى امرأة تقوم به مثلاً ، بل يقوم به مع سائر الأدوار الأخرى الرجال والنساء جميعاً وهكذا فى بقية الأدوار التى نسميها مناسك الحج .

ولا شك أن هذه الظاهرة التى لا نعرف لها نظيراً عند الأمم الأخرى مرجعها إلى هذا الدين القيم دين التوحيد الذى يجعل التقديس لله وحده ولا يعترف بتقديس من سواه من الأشخاص . ولذلك تعذر عند العرب وجود التمثيل بمعناه المعروف لدى الأمم التى تدين بتعدد الآلهة وتقديسها وإسناد الصفات البشرية إليها إذ كان معظم هؤلاء الآلهة فى الأصل من البشر ممن كانوا ملوكاً عظاماً لهم أو أبطالاً فى تاريخهم فلما ماتوا اتخذوهم آلهة وعبدوهم .

وإذا لم يوجد المسرح عند العرب فى جاهليتهم فأحرى ألا يوجد لديهم بعد الإسلام الذى قضى على تلك الوثنية العربية وأعاد إليهم دين التوحيد كأصفى وأنقى ما يكون التوحيد .

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن تقديس الأشخاص من مظاهر الوثنية ، والإسلام ينهى عن ذلك نهياً مشدداً ، وإلى أن نشأة الدراما فى ظل المعابد الوثنية كانت تقوم على تقديس من كانوا ملوكاً أو أبطالاً ثم ألّهُوهم بعد وفاتهم . ونضيف إلى ذلك الآن أن مما يؤيد هذا الذى ذهبنا إليه أن نوعاً من الدراما قد نشأ عند مسلمي الشيعة من الفرس لما يدينون به من تقديس أشخاص من أهل البيت كالحسين بن على رضى الله

عنهما مثلاً فقد اتخذوا من مأساته الدامية بكر بلاء نواة لمسرحية يمثلونها كل عام فيكون وينوحون .

غير أن هذه المسرحية بقيت كما هي لم تتطور ولم تنفصل عندهم عن الشعائر الدينية ولعل السبب في ذلك أن هذا التطور يقتضى زمناً طويلاً وأن اتصالنا اليوم بأدب الغرب وما عرفناه من فنه المسرحي يحول دون تطور هذا المسرح الشيعة إذ يكون أسهل عليهم أن يحتذوا نماذج الغرب في التمثيل لو أرادوا ذلك فمثله كمثل الصناعات اليدوية التي كانت قائمة في الشرق لم تلبث أن ماتت حين ظهرت النهضة الصناعية في الغرب .

حقاً كان بعض الروعاظ يعمدون إلى أسلوب التمثيل في وعظهم ، كما روى عن ذلك الصوفي الذي كان يخرج إلى ظاهر بغداد فيلتف حوله الناس فيكلف أتباعه بأن يمثل أحدهم أبا بكر الصديق وآخر عمر ابن الخطاب وهكذا بقية الصحابة والخلفاء فيثنى هو عليهم ويشيد بأعمالهم أو يحاكمهم ويقضى فيهم قضاءه ، ولكن هذا التمثيل كان في حدود ضيقة فلم يكن له أى شأن يذكر ولا نحب أن نستطرد إلى ذكر خيال الظل والأراجوز وانتشارهما في أيام الأيوبيين والمماليك فبالرغم من وجود الظواهر التمثيلية في هذين الفنين فإنهما لا يدخلان في باب التمثيل المسرحي الذي نتحدث عنه .

ونحن نريد أن نخلص من هذا كله إلى مناقشة فكرة طالما رددتها بعض الكتاب والباحثين من أن الفن المسرحي لا يرجى أن يزدهر عندنا في الشرق العربي كما ازدهر في البلاد الأخرى لعدم استناده إلى جذور

دينية عميقة كما هو الحال فى تلك البلاد التى نشأ فيها المسرح منبثقاً من الشعائر الدينية ثم تطور مع الأيام حتى استقل عنها فناً علمانياً كما يقولون . وعندى أن هذه الفكرة بعيدة عن الحقيقة فالفن المسرحى إن كان البثق قديماً من الطقوس الدينية عن بعض تلك الشعوب فقد انفصل عنها من وقت بعيد وأصبح فناً مستقلاً بأصوله وقواعده ، وقد تناول من الموضوعات التى لا صلة لها البتة بالدين أكثر من الموضوعات الدينية التى كانت أصل نشوئه فلم تعد لهذه الحقيقة التاريخية أية أهمية بالنسبة لحاضر الفن المسرحى ومستقبله .

وهو بالنسبة إلينا فن جديد اقتبسناه من الغرب كما اقتبسنا الفنون الأدبية الأخرى التى لم تكن معروفة لدينا كالفن الرواية ، وقد اقتبسناه فى صورته الأخيرة المتكاملة . وسيزدهر عندنا حتماً على قدر اهتمامنا به واحتفالنا له . شأننا فى ذلك شأن غيرنا من الشعوب التى تهتم به اليوم بقطع النظر عن وجود جذور دينية له قديمة أو عدم وجودها . وفرق كبير بين القول بأن هذا الفن لم يزدهر بعد عندنا لحدائث عهدنا به وبين القول بأنه لا يرجى له الازدهار فى المستقبل لوجود مانع يحول دون ذلك هو عدم استناده عندنا إلى جذور دينية قديمة .

وما لنا نذهب بعيداً فنظرة إلى المحاولات التى قام بها كتابنا فى هذا الميدان تثبت لنا بطلان هذه الفكرة فقد وجدت لدينا مسرحيات أصيلة لا يقل مستواها كثيراً عن مستوى المسرحيات العالمية . وإذا كان عددها اليوم قليلاً فإننا نرجو أن يكثُر فى المستقبل وخاصة إذا بدلت لتشجيع المسرح والنهوض به رعاية أكثر مما يبذل له اليوم .

فن المسرحية

لكل فن من الفنون جانبه الموضوعى وجانبه الذاتى ، فإن يكن ثم فن يكاد ينفصل انفصالا تاماً عن كاتبه الفنان ويستقل بوجود خاص به فهو فن المسرحية وإلى هذا نظر الشاعر ورد زورث حين قال عن سونيتات شكسبير إن شكسبير قد فتح فيها مغاليق قلبه ولا ينطبق هذا القول على مسرحيات شكسبير لأن لها حياة مستقلة عن حياة كاتبها فهي لا تكشف عن قلبه وذهنه وإنما تكشف عن قدرته على التغلغل فى أذهان وقلوب الآخرين .

ثم إنه فن جماعى تعاونى إلى حد كبير . فالكاتب المسرحى لا يستطيع أن يتحكم تحكمًا تاماً فى عمله الفنى كما يفعل كاتب القصة مثلاً لأنه مضطر أن يراعى اعتبارات خارجية كثيرة ، فمنها الممثلون الذين سيقومون بتمثيل مسرحيته ومنها الإمكانات المادية للإخراج ومنها المخرج نفسه الذى كثيراً ما يحرص على أن تكون له الأولوية فى تفسير النص أو على أن يظهر اتجاهه الخاص فى الإخراج ويغلبه دون مراعاة لوجهة نظر المؤلف .

ثم هناك الجمهور الذى يصعب إرضاءه ويعسر معرفة ما يرضيه لتفاوت أفراده من جهة ولتباين أجوائه النفسية من جهة أخرى .

ويضاف إلى كل هذا مشكلة اللغة التي ينبغي أن تكون أدبية مصقولة وتكون في ذات الوقت واقعية تتواكب مع المستويات المختلفة لشخص مسرحيته .

والمسرحية كأي عمل فني آخر يجب أن تكون كلا متناغما بالرغم من تباين أجزائه ولم يعد كاتبها اليوم مطالبا بمراعاة الوحدات المسرحية الثلاث ولكنه مطالب بوحدة أخرى أهم وأعظم هي الوحدة الفنية التي تعتمد على دقة الإحساس بالتناسب العام والقدرة على التمييز بين ما هو متصل بصميم الموضوع وما ليس كذلك .

المأساة قبل الملهاة :

ظهرت المأساة في تاريخ المسرحية قبل ظهور الملهاة . ولا غرو في ذلك إذا علمنا أن الفن المسرحي نشأ أول ما نشأ في ظل المعابد الوثنية كجزء من الطقوس الدينية ولا مكان في تلك المعابد للهزل والسخرية . فعند الإغريق مثلا ظهرت مآسى اسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس قبل ملاهى أرسطوفان التي لم تظهر إلا بعد أن تزعر إيمان الناس بدينهم وآلهتهم وانتشر فيهم السخط على الحكام وعلى الأوضاع الاجتماعية . ولعل هذا التدرج يصدق على الأفراد أيضا كما يصدق على الأمم . وليس غريبا إذن أن بدأت بكتابة المأساة كذلك فكتبت إخناتون ونفرتيتي وسر الحاكم بأمر الله والفرعون الموعود ولم أبدأ في كتابة الملهاة إلا بعد ذلك بسنوات حينما تهيأت لإدراك الأخطار السياسية التي تهدد أمتنا العربية على حقيقتها فأخذ السخط يغلى في نفسى على القوى

الاستعمارية التي تتحكم فى مصاير الشعوب العربية ولا سيما بعد ما
تأزمت مشكلة فلسطين وكشرت الصهيونية العالمية عن أليابها وتوقع
أعوانها فى مناصرتها ضد مصالح العرب .

وقد يبدو غريبا أن الفكاهة والسخرية تنبعان أول ما تنبعان من
السخط والحقد ، ولكن تجربتى الشخصية على الأقل قد أثبتت لى هذه
الحقيقة .

فقد ظلمت برهة بعد ما زاولت الكتابة المسرحية أعتقد أننى من أبعد
الناس عن الفكاهة وأقلهم قدرة على الإضحاك والتكيت إلى أن اشتعل
السخط فى نفسى للأسباب التى أشرت إليها آنفا فإذا الفكاهة
والسخرية طوع بنانى .

وكان أول ما اكتشفت هذه القدرة عندى حين كتبت تمثيلية من
فصل واحد عن الرئيس الأمريكى السابق ترومان الذى قمت على يده
مأساة فلسطين وكان عنوانها (سآبقى فى البيت الأبيض) وقد شجعنى
نشر هذه التمثيلية ونجاحها على مواصلة هذا الاتجاه السياسى فكتبت ما
يزيد على سبعين تمثيلية عن مختلف القضايا العربية والإسلامية ، وكان
معظمها يفيض بالسخرية حين كنت أتناول الشخصيات الاستعمارية من
أمثال تشرشل وترومان والجنرال سمطس ، وكذلك أعوان الاستعمار
وأذنايه من حكام العرب أو ساستهم .

وقد جمعت بعض هذه التمثيليات فى كتابى (مسرح السياسة) .
وسأورد لكم مثلا فى ذلك لأوضح أثر السخط فى تفجير طاقة
الفكاهة والسخرية والإضحاك .

كانت المشكلة الفلسطينية على أشدها فى هيئة الأمم المتحدة وكان سكرتيرها العام المسيو تريجفى لى يتحيز لليهود تحيزاً صارخاً يستفز الأعصاب حتى كأنما كان مندوباً لهم فى الهيئة إذ كان صهيونيا أكثر من الصهيونيين أنفسهم . فكان قلبى يمتلى قيحاً كلما قرأت اسمه أو رأيت صورته فى الصحف وتضاعف حقدى عليه فأخذ يغلى فى نفسى ويؤرق منامى ويفسد علىّ سكينتى ويدفعنى للانتقام منه بقلمى إذ لا سبيل لى إلى الانتقام منه بغيره وقلت فى نفسى لأسخرن به سخرية تمزقه وتمرغه فى التراب . ولكن كيف أكتب عنه وماذا يكون محور التمثيلية التى سأخصصها له ؟

وأؤكد لكم أن التفكير لم يقف بى طويلاً إذ ما لبثت الفكرة أن انقدحت فى ذهنى وانبثقت عن صورة خيالية بالغة فى السخرية ثم ما لبثت هذه الصورة الخيالية العامة أن تشققت فتولدت عنها صورة فرعية غريبة ما كانت تخطر لى على بال ، وما أن تهيأت للكتابة حتى انشالت المعانى علىّ يأخذ بعضها برقاب بعض حول ذلك المحور الذى حددته تلك الفكرة الأولى عن ذلك الشخص البغيض ، وأسفرت هذه التجربة عن تمثيلية بعنوان (نقود تنتقم) وإليكم ملخصها :

هذه زوجته تؤكد مرة بعد مرة أنها سمعت النقود المحفوظة فى خزانته الحديد تتحاور فيما بينها وتتوعد بالانتقام منه وذلك لأنها من النقود التى دفعته الدول العربية المشتركة فى الهيئة والتى تسربت إلى خزانته ضمن الراتب الكبير الذى يتقاضاه منها .

فيكذب هو قول زوجته ويتهمها بالخبل والجنون ولكنها تصر على أنها سمعت ذلك حقا وصدقا . فضاق بها ذرعا وأرسلها إلى مستشفى للأمراض العقلية لعلاج هناك .

وأثبت الفحص الطبى أنها سليمة العقل فأرسلوا فى طلبه ليأخذ زوجته ولكنه يرفض أخذها لأنه يخشى إن كانت زوجته سليمة العقل أن يصدق قولها فيصاب بالمرض الذى زعمت له أنها سمعت النقود تهدده به .

وارتاب الطبيب فى أمره فدعاه إلى حجرة الكشف ليكشف عليه هو فارتاع ارتياعا كبيرا . وأخذ يؤكد له أنه سليم العقل وليس به شىء مما يظن وأوصاه أن يكتم ذلك عن كل أحد خشية أن يفقد منصبه إذا شاع فى الناس أن الطبيب فحص قواه العقلية حتى ولو كانت النتيجة سليمة ! وفى المشهد الثانى لرى تريجفى لى يتقلب على فراشه متألما من مغص ورياح تفرقر فى بطنه وعنده زوجته تحاول عبثاً أن تخفف عنه ويحضر الطبيب فيدور بينهما هذا الحوار :

الطبيب : هل شربت يا سيدى قارورة الزيت بأكملها ؟
 تريجفى لى : إن كنت تعنى القارورة ذاتها فليس فى وسعى أن أبلعها .
 الطبيب : بل أعنى ما فى القارورة بالطبع .
 تريجفى لى : لقد أفرغته كله فى جوفى .
 الطبيب : إذن فلا بد من مضاعفة الكمية .
 تريجفى لى : أما عندك سوى زيت الخروج ؟ أهذا كل ما تعلمته من الطب ؟

- ٣١ -

الطبيب : لا يوجد مسهل يمكن تعاطيه بكميات كبيرة دون ضرر
إلا هذا الزيت .

تريجفى لى : فكم قارورة تنصحنى أن أشرب ؟ مائة قارورة ؟ ألف
قارورة ؟

الطبيب : يا سيدى إن شراءه بالقوارير يكلفك ثلثنا باهظا ولكن
توجد منه براميل صغيرة فاشرب برميلا كل ليلة عند
النوم .

الزوجة : برميلا بأكمله يا دكتور ؟

الطبيب : لا ضير عليه يا سيدتى . من حسن الحظ أن لزوجك بطنا
كبيراً يسع البرميل وزيادة .

وفى مشهد آخر نرى موسيه شرتوك يعود تريجفى لى فى بيته فيلومه
على فتور همته فى نصرة قضية اليهود فيطالبه تريجفى لى بمضاعفة الهدايا
والهبات لأن براميل الخروج التى يتعاطاها تكلفه مبالغ طائلة فيعهده
شرتوك باسم الوكالة اليهودية أن يستورد له باخرة ملأى بالخروج
يغترف منه كما يشاء .

ويسأله شرتوك أن يصف له ما يشعر بالضبط فيدور بينهما هذا

الحوار :

تريجفى لى : إن بطنى يا مستر شرتوك قد أصبح كفلسطين تدور فى
داخلها معارك رهيبة ، وما هذه القراقر إلا صداها
المسموع . والطعام الذى آكله أتدرى ما مثله حين
يدخل فى جوفى ؟

شرتوك : ما مثله ؟

تريجفى لى : مثل المهاجرين حين يدخلون فلسطين . فإذا هم فى معمعان القتال تتخطفهم القوات العربية من كل مكان وتعرکہم عركا فيحاولون الخروج منها فيمنعهم إخوانهم الإرهابيون ويسدون عليهم السبل أما برميل الخروج الذى أعطاه كل ليلة فيرفه قليلا عنى فمثله كمثل القوات البريطانية التى يأتيا الإذن بالانسحاب فتخرج من البلاد زمرة بعد زمرة .

شرتوك : (مشمئزاً) هذه صورة بشعة رسمتها لجال اليهود فى فلسطين لا تدل على عطف صادق عليهم .

تريجفى لى : لا تسمى فهم حديثى يا مستر شرتوك . فلولا أننى شديد العطف والرثاء لحنة اليهود فى فلسطين لما ضربتها مثلاً للمحنة التى فى بطنى فكلاهما تؤلمنى ألماً بالغا .

وهكذا تتسلسل السخرية من صورة إلى صورة حتى يهتدى تريجفى لى أخيراً إلى حل يستريح إليه ، وذلك أنه اتفق مع صراف هيئة الأمم المتحدة على أن يعزل الأخير ما يرد إليه من نقود الدول العربية المشتركة فى الهيئة حتى لا يتسرب إليه منها شىء . ويكون راتبه الشهرى خالياً منها خلوا تاماً .

وبعد ، فأرجو ألا أكون أطلت عليكم بتلخيص هذه التمثيلية إذ أردت أن أعرض عليكم مثلاً حياً لمصداق ما ذهبت إليه من أن السخط والحقدهما المنبع الأول للفكاهة والسخرية . ثم إن هذه تجربة هامة فى

- ٣٣ -

حياتى المسرحية ينبغى أن أقف عندها طويلا إذ كانت هذه التمثيلات القصيرة نقطة تحول عندى من ناحيتين :

الأولى : أنها كانت بداية اكتشافى للنزعة الفكاهية عندى ، مما شجعنى بعد ذلك على كتابة الملهاة الطويلة .

والثانية : أنها كانت بدء عهدى بعلاج القضايا السياسية فى المسرحية .

عناصر التأليف المسرحى

١ - الفكرة الأساسية :

ينبغى أن يكون للمسرحية فكرة أساسية واحدة تدور عليها من أولها إلى آخرها ، ولا ينبغى أن يكون لها أكثر من فكرة أساسية إلا إذا كانت الثانية مندرجة فى الأولى غير منفصلة عنها فى الزمن . وفى هذه الحالة تكون هناك فى الواقع فكرة واحدة إذ لا تكون الثانية حينئذ إجزاء متمما لها .

أما إذا كانت الثانية منفصلة عنها فى الزمن فإن المسرحية تضعف وتضار إذ تنتهى حيث انتهت الفكرة الأولى وتبدأ بعد ذلك مسرحية جديدة .

وقد وقع لى مثل هذا الخلل فى مسرحية لى عنوانها (الدكتور حازم) فهى تدور على فكرتين أولاهما : لمن تكون ولاية البيت إذا كان الأب ضعيفاً غير رشيد وكان الابن هو الرشيد الحازم ؟ .

(فن المسرحية)

والثانية : هل للحماة أن تتدخل في شئون زوج ابنتها ؟
وكان في الإمكان أن تتدخل الفكرتان بحيث لا تنفصل إحداهما عن
الأخرى في الزمن إذاً لاستقامت المسرحية وسلمت من هذا العيب ،
عيب انشطار فكرتها الأساسية .

ولكى يتضح لكم ذلك سألخص المسرحية :
حازم ابن نجيب لشريف بك تخرج من كلية الطب وفتح عيادة ناجحة
وقد خطب ناهد بنت صبرى أفندى ولكنه لم يستطع أن يحدد موعد
الزواج منها لأنه لم يستطع أن يجهز للزواج شيئاً إذ يذهب كل دخله من
الوظيفة ومن العيادة إلى أبيه الواقع تحت سيطرة زوجته حكمت هانم التى
تبدد المال ذات اليمين وذات الشمال وتغدق على ابنها الفاسد المدلل
عباس .

وحاول حازم سدى أن يضع حداً لهذه الحال فأشار عليه صبرى
أفندى أن يستقل عن بيت أبيه فاعتذر حازم بأنه لا يستطيع أن يترك أباه
وحده فى هذه المحنة . وعندئذ أيقن صبرى أن ابنته لن تسعد بالزوج من
الدكتور حازم فقرّر فسخ الخطبة على أثر مشاجرة حادة وقعت بينه وبين
شريف بك الذى اتهمه بتحريض ابنه حازم على التخلي عن أهله
ليستحوذ هو على دخله لصالح ابنته .

وعز على حازم أن يفقد حبيبته ناهد ولم يقو على احتمال الصدمة
فترك بيت أبيه وانقطع إلى الحانة يفرق همومه وآلامه فى الخمر ولعب
الميسر وأهمل العيادة وانقطع عن عمله فى الوظيفة حتى فصل منها .

وأثر ذلك على شريف بك إذ انقطع المدد الذى كان يأتيه من دخل ابنه حازم فاعتذر لصبرى أفندى عن الإهانة التى وجهها إليه وناشده أن يعمل على إعادة الأمور إلى مجاريها مع حازم وأكد له أنه سيجعل حازما رب الأسرة لا يصرف مليم واحد فيها إلا بإذنه ، فقبل صبرى ذلك لأن ابنته ناهد مازالت على حبها لحازم .

وعاد حازم إلى خطيبته ناهد وأقلع عن الحانة واستأنف عمله فى العيادة بهمة ونشاط فحسن حاله ولكنه لم يرض أن يعود إلى بيت أبيه وبقي مقاطعاً له فضاقت الحال بأبيه حتى كاد أن يبيع بقية أطيانه للديون التى ركبته من جراء إسراف زوجته وانقطاع حازم عن مساعدته .

وأقبل الجميع إلى العيادة التى اتخذها حازم مسكناً له يترجونه أن يرضى عن أبيه بعد ما اعترف بخطئه وبعد ما تعهد بأن يجعل الأمر كله فى البيت لحازم فأصر حازم على الرفض وأغلظ فى الكلام حتى أغمى على أبيه فتولى حازم إسعافه وحين عاد إلى صوابه جعل يقول وهو يبكى : لا تعالجنى يا حازم خير لى أن أموت لكى ترضى أنت أن ترعى شئون الأسرة مكانى .

فما كان من حازم إلا أن رق لدموع الشيخ فاحتضنه وصاحه .
وهنا تنتهى الفكرة الأولى فى خمسة مشاهد . ويأتى بعد ذلك المشهدان السادس والسابع فنرى حازما فى بيته الجديد وقد تزوج من ناهد فهو سعيد بها وهى سعيدة به والأمور بين الدكتور حازم وبين بيت أبيه على أحسن ما يرام فقد كفت زوجة أبيه عن إسرافها وأصبحت خاضعة لولاية حازم وتديره حتى أنها طردت ابنها الفاسد من البيت .

ولكن أمينة هانم (حماة حازم) بدأت توغر صدر ابنتها ناهد وتدفعها إلى الثرة على هذه الحال فهي تريد أن يكون دخل حازم وقفاً على بيته الخاص ليستطيع أن يقتصد شيئاً لزوجه وأولاده في المستقبل .

وحضرت حكمت هانم وبناتها لزيارة ناهد فاشتبكت أمينة في معركة كلامية معهن حول هذه المسألة وكان حازم في الحمام فخرج على سماع الضجة فانتصر لزوجة أبيه وصارح حماته بالألا تتدخل في شئون بيته فخرجت غاضبة وغضبت ناهد لغضب أمها فخرجت كذلك .

وبقيت ناهد عند أهلها أسبوعاً لعل زوجها يحىء لاسترضائها ولكنه لم يفعل بل أن أباه صبرى أفندى كان يلومها على خروجها من بيتها من أجل أمها التي كانت هي المسئولة عن المصير المحزن إلى أن اضطرها أخيراً للرجوع إلى زوجها الدكتور وبذلك انتهت المسرحية .

ومن هذا ترون أن الفكرة الثانية منفصلة عن الأولى في الزمن . أى أن حوادث الثانية لم تبدأ إلا بعد ما انتهت حوادث الأولى فلم يكن بينهما التلازم المطلوب لأنه إن صح أن حوادث الفكرة الثانية قائمة على حوادث الفكرة الأولى لأن الأشخاص هم الأشخاص والوضع هو الوضع إلا أن هذا لا يكفي لإدماجهما في مسرحية واحدة إذ يجب لذلك أن تكون حوادث الفكرة الأولى قائمة أيضاً على حوادث الفكرة الثانية .

ولعل من المستحسن أن أضرب لكم مثلاً آخر تحقق فيه هذا الشرط الذى لم يتحقق في مسرحية الدكتور حازم وذلك في مسرحية (مسمار جحا) .

ففى هذه المسرحية فكرتان أساسيتان أو خطان أساسيان أحدهما هو الخط السياسى الذى يتمثل فى الصراع بين جحا وبين الحاكم الدخيل حتى انتهى بثورة الشعب على الدخيل وتحرر البلاد من نيره . والثانى هو الخط الاجتماعى الذى يتمثل فى الصراع بين جحا فى مثاليته وبين زوجته أم الغصن فى ماديتها الصارخة ويتركز هذا الصراع بصفة خاصة حول تزويج ابنتهما ميمونة ، فجحا يريد أن يزوجه لابن أخيه الفلاح (حماد) حتى بعد ما حسن حال جحا وارتفع مقامه حين صار قاضى قضاة البلاد ، وأم الغصن تأبى إلا أن تزوج ابنتها لغنى من الأغنياء وانتصر رأى جحا فى النهاية فزوجت ميمونة لحماد وبذلك يسدل الستار على المسرحية .

وقد انتهى الخط الأول فى المشهد قبل الأخير بينمابقى الخط الثانى إلى المشهد الأخير ولكن الخطين متداخلان فى المسرحية ومرتبطان ارتباطاً وثيقاً حتى إذا انتهى أحدهما وانحلت عقدته لم تنته المسرحية إذ ظل المتفرج ينتظر كيف تحل عقدة الخط الثانى وبحلها تنتهى المسرحية .

الموضوع :

أمام الكاتب المسرحى مجال واسع لاختيار الموضوع اجتماعياً أو سياسياً أو تاريخياً أو أسطورياً وهو فى كل ذلك لا يستغنى عن أمور ثلاثة :

١- خبرة واسعة بالحياة الإنسانية يستمد منها القدرة على خلق العالم الخاص بمسرحيته على النمط الذى يجرى عليه العالم الإنسانى العام بحيث تكون مسرحيته قطعة صادقة من الحياة حية نابضة .

٢- خيال خصب يساعده على ابتكار صورة جديدة من الحياة بأحداثها وشخصياتها وألوانها وأجوائها بحيث يجعل ما لم يقع فعلاً في الحياة كأنه قد وقع من شدة مطابقته لما يقع فيها أو لما يمكن أن يقع فيها . فهذا الخيال الخصب هو الذى يتدع هذه الصور الجديدة ويؤلفها من أشتات مختلفة من آلاف الصور التى مرت بتجربته فى أوقات متفرقة .

٣- هدف خاص أو رسالة خاصة يتحمس لها ويسعى جاهداً لتأديتها من خلال هذا القطاع من الحياة الذى يصوره فى مسرحيته فهذا الهدف هو الذى يدفع الكاتب إلى التحمس لعمله ويحدد الإطار الذى يصوغ فيه هذا العمل ، ويكون هو الجواب للسؤال الموجه إليه عن سبب اختياره لهذا الموضوع بالذات .

وغنى عن البيان أن هذا ينطبق على الموضوعات التى يختارها الكاتب من حياة الجيل المعاصر له ، وعلى الموضوعات التى يختارها من تاريخ الأجيال السابقة أو من الأساطير القديمة ، فهو إذ يتناول موضوعاً تاريخياً لا تكون مهمته تسجيل ما حدث فى التاريخ كما حدث فتلك مهمة المؤرخ ، وأما مهمته فهى أن يخلق فى إطار تلك القطعة من التاريخ عالماً جديداً تقع فيه الأحداث وتتصرف فيه الأشخاص وتنعقد فيه المشكلات وتصدر عنه النتائج لا كما أثبتته سجلات التاريخ بل بمقتضى الصورة العامة التى تخيلها على ضوء معرفته بحياة ذلك العصر على وجه خاص وخبرته بالحياة الإنسانية على وجه عام ، مستهدياً فى ذلك كله بالهدف الذى يرمى إليه والرسالة التى يريد أداؤها .

ومن الخير للكاتب أن يرسل نفسه على سجيته في اختيار الموضوع الذى يلائم ميله ، ويستأثر باهتمامه ويستثير حماسه . فذلك أجدر أن يحسن الكتابة فيه وأخرى أن يعينه على الإجادة والتفوق وألا يتكلف الموضوعات التى لا يحسنها أو لا يجد فى نفسه ميلا إليها لمجرد أن الناس يطلبون منه ذلك أو لأنها هى الرائجة فى السوق . فلكل كاتب مزاجه الخاص ، وإمكانياته الخاصة المنبثقة من ظروف حياته وثقافته وبيئته . فينبغى أن يكون صادقا مع نفسه فلا يدعو إلى شىء لا يؤمن به . وقديماً قالوا فاقد الشىء لا يعطيه وليست الناحية الشكلى كالمستأجرة .

الكاتب الداعية

ويسوقنا هذا الحديث إلى الكلام على النزعة الإصلاحية أو الدعوة لفكرة خاصة كمنبع للإلهام المسرحى ، ويمكننا أن نصوغ السؤال على الوجه الآتى :

هل يصلح أن يكون الكاتب المسرحى داعية لفكرة خاصة ، وهل يمكن لمثل هذا الكاتب الداعية الذى يستوحى موضوعاته من حماسه المتوقدة لهذه الفكرة أن ينتج مسرحيات تعتبر أعمالاً فنية ؟

والجواب على هذا السؤال بالإيجاب ، ويكفى لإثبات ذلك أن كثيراً من الأعمال الفنية المعدودة قد كتبها أصحابها ليبشروا بفكرة خاصة استحوذت على قلوبهم واضطربت بها نفوسهم فنفسوا عنها بتلك

الأعمال المسرحية الجيدة . هذا برناردشو معظم مسرحياته من هذا القبيل وقد اعترف غير مرة بأنه إنما اتجه إلى المسرح لثقلته بأن المسرح أداة فعالة ومنير ممتاز للتعبير عن آرائه والتبشير بها ومثله فى ذلك هزريك إبسن وجون جالزورثى ، وجان بول سارتر ، فهؤلاء وكثير غيرهم قد كتبوا مسرحيات ناجحة كانت كلها مستوحاة من حماستهم المتوقدة للإصلاح الاجتماعى والسياسى سواء كان قومياً أو عالمياً : ولم يعبها أو يقلل من قيمتها الفنية أنها كانت مسرحيات هادفة أو قائمة على دعوة من الدعوات .

ولكن ينبغى لمثل هذا الكاتب المسرحى ألا ينسى وهو يلتهب حماسة للدعوة التى يدعو إليها أن المسرحية عمل فنى قبل كل شىء فيجب ألا يجور على فنيته بحال من الأحوال . بل ينبغى أن يحرص الحرص كله على سلامة عمله من الوجهة الفنية ، وأن يدرك أن ذلك هو السبب الوحيد لجعل الرسالة التى ينطوى عليها بليغة التأثير فى الجمهور الذى يشاهده . والخلاصة أن على هذا الكاتب أن يجعل الداعية فيه خادماً للفنان المسرحى فيه ، لا سيداً له ، وإلا فليتخذ أداة أخرى غير الكتابة المسرحية كالخطابة أو الصحافة .

المسرحية والقومية العربية

إن القومية العربية بمفهومها الحديث ما بدأت تظهر فى أقلام الكتاب العرب وفى قصائد شعرائهم بصورة واضحة إلا منذ قبيل الحرب العظمى الأولى عندما أحس العرب بثقل وطأة الحكم التركى الذى كان يسيطر على معظم بلادهم ، وخاصة منذ ظهرت فى الأتراك تلك النزعة العنصرية الداعية إلى الجامعة الطورانية والرامية فيما ترمى إليه إلى تزريك العناصر الخاضعة للدول العثمانية ، ومنها العنصر العربى وما يقتضيه ذلك من القضاء على كيان العرب ولغتهم وآدابهم . فكان ذلك سببا لانحياز العرب إلى معسكر الحلفاء المناهض للمعسكر المنضوية إليه تركيا بمقتضى وعود قطعتها لهم بريطانيا وحلفاؤها أن تحصل البلاد العربية على استقلالها وحريتها بعد الحرب . ولكن الحلفاء أخلوا بمواثيقهم فاقسموا الشام والعراق وليبيا فيما بينهم . وبقيت القومية العربية حلما يتغنى به الشعراء وتجربى به أقلام الكتاب منذ ذلك الوقت حتى أتاح الله لها من أحوال هذا الحلم إلى حقيقة واقعة فى شخص زعيم النهضة العربية الرئيس جمال عبد الناصر .

وقد تأثرت بهذه الروح فيما تأثرت به من قراءاتى الأولى للشعر العربى المعاصر فى مصر والعراق والشام منذ كنت يافعا فى حضرموت ، ثم نمت هذه الروح عندى بعد الرحلات التى قمت بها فى أطراف اليمن وربوع الحجاز إلى أن استقر بى المقام فى مصر فكان ذلك يظهر فى الشعر الذى كنت أنظمه إذ ذاك فى المناسبات القومية التى تدعو إلى ذلك .

— ٤٢ —

ولما بدأت أزالو الكتابة المسرحية كان من الطبيعي أن أتخذ القومية العربية منبع إلهامى الأول ، وأن يقع اختياري على الموضوعات المناسبة لذلك .

فاخترت أول ما اخترت مثلا موضوع إخناتون ، وقد يبدو غريبا أن أختار هذا الموضوع الفرعونى الذى لا صلة له البتة بالقومية العربية ولكن الواقع أننى اخترته بالذات بدافع قوى من إيمانى بها .

ذلك أننى حين قدمت إلى مصر فى غضون سنة ١٩٣٤ كانت لا تزال هناك بقايا من روح الدعوة الإقليمية التى روج لها الاستعمار ليقطع بها أوصال الأمة العربية ويفرقها شيعا ، وكان بعض الكتاب المتحمسين للقومية العربية ينعون على مصر اعتزازها بتاريخها الفرعونى القديم ، ويودون لو تكفر بتلك الأجداد الفرعونية وتكتفى بأجدادها العربية ، ولكن هذه الطريقة لم تعجبني ولم أقتنع بها فيما بينى وبين نفسى ، فمن الشطط إن لم يكن من المحال أن تحمل مصر على تناسى أو تجاهل حضارتها القديمة التى أذهلت العالم ، والتى صارت تراثا إنسانيا مشتركا يعنى به العلماء من جميع الشعوب ويدرس فى كل جامعات العالم . فلم لا يعترف العرب بهذه الحضارة ، ولم لا يعتزوا بها وقد نبتت فى قديم هذا الشرق العربى فهم أولى بذلك من غيرهم ؟

أليست مصر بلدا عربيا فى طبيعة البلاد العربية ؟ أليس تاريخها القديم جزءا من تاريخها العام ومن ثم يكون جزءا من تاريخ هذا الشرق العربى ينبغى أن يعتز به كل عربى ورث هذه الحضارات كلها : الحضارة الفرعونية فى مصر والحضارة البابلية فى العراق والحضارة الفينيقية فى

- ٤٣ -

الشام ؟ وما الفرق بين هذه الحضارات وبين الحضارة السبئية أو المعينية فى اليمن ؟ أليست كلها منسوبة لسكان هذه البلاد الأقدمين الذين هم أجداد عرب اليوم فى هذه الأقطار ؟

بلى ، ينبغى أن تضاف هذه الأجداد التاريخية القديمة إلى رصيد مجد الأمة العربية واثرة هذه الحضارات كلها واثرة الأرض التى نبتت فيها هذه الحضارات .

وبهذا الوعى كتبت مسرحية (إخناتون ونفرتيتى) وأشارت إلى هذا المعنى فى مقدمة الكتاب متمثلاً ببيت من قصيدة نظمته على لسان أبى الطيب المتنبى بمناسبة ذكره الألفية يقول فيها مخاطباً المصريين :

أبوكم أبى يوم التفاخر يعرب وجدكمو فرعون أضحى بكم جدى
وكان فى نيتى إذ ذاك أن أتبع هذه المسرحية بمسرحيات أخرى
أستوحىها من التاريخ القديم لكل قطر عربى فمسرحية عن حمورابى
ومسرحية عن هانيبال ومسرحية عن ملكة تدمر ومسرحية عن اليمن
القديمة وهكذا حتى إذا قرأها العرب فى كتاب أو شاهدوها على المسرح
أدركوا أن هؤلاء الأبطال كانوا أجدادهم ، وأن هذه الأجداد تعتبر
أمجادهم إلى جانب المجد العربى الجامع ، فلا تناقض بين الاعتزاز بهذا
والاعتزاز بذلك .

غير أنى لم يقدر لى إنجاز هذا البرنامج فقد جدت أحداث عقب ذلك
قللت من أهمية ذلك الغرض الذى أشرت إليه وذلك حين ظهرت دلائل
انبعاث الوعى القومى العربى من جديد وكان من نتائجه قيام جامعة

- ٤٤ -

الدول العربية ولم يعد هناك ما يخشى من شيوع الروح الإقليمية البغيضة في الأقطار العربية .

على أن القومية العربية ظلت مع ذلك رائدى فى أغلب ما كتبت بعد ذلك من مسرحيات وقصص ولكن لغير ذلك الغرض الخاص الذى انتفت الحاجة إليه وإنما لإبراز ما فى تاريخنا الحافل المجيد من مثل عليا يتبغى أن تستنير الأمة العربية فى جهادها من أجل التحرر والاستقلال وفى كفاحها لبناء مستقبل مجيد يليق بماضيها المجيد .

الموضوعات التاريخية والأسطورية

لعل اهتمامى بالقومية العربية كان ذا أثر فى ولوعى بالتاريخ واستلهامه لموضوعات كثيرة من مسرحياتى ، على أن هناك أسبابا أخرى منها أن الفن عموماً والفن المسرحى خصوصاً ينبغى عندى أن يقوم أكثر ما يقوم على الرمز والإيحاء لا على التعيين والتحديد فتكون الحقيقة التى يصورها العمل الفنى - وهو هنا المسرحية - أوسع وأرحب من الحقيقة التى يمثلها الواقع .

وأحداث التاريخ تعين الكاتب على بلوغ هذه الغاية أكثر مما تعينه أحداث الجليل المعاصر ، لأن أحداث التاريخ قد تبلورت على مر الأيام فاستطاعت أن تنزع عنها الملابس والتفاصيل التى ليست بذات بال من حيث الدلالات التى يتصيد بها الكاتب للوصول إلى الهدف الذى يرمى إليه فى عمله الفنى .

حقاً إن أساس الفن هو الاختيار ، والفنان يستطيع أن يختار من المادة التي يجيل منها موضوعه العناصر التي يراها ذات دلالة ويطرح ما ليس كذلك ، سواء كانت هذه المادة من التاريخ أو من الحياة المعاصرة ، غير أن التاريخ للسبب الذى أشرنا إليه آنفا أعون على هذا الاختيار المطلوب من الحياة المعاصرة التى يصعب تخليصها من الزوائد والفضول الخالية من الدلالة التى يقصدها الفنان .

ولذلك أغرمت أيضاً بالموضوعات الأسطورية لأن الأساطير أغنى من التاريخ فى هذا المعنى وأرحب أفقا وأكثر انطلاقا من القيود الزمنية والظروف المحلية فالحداث المعاصر إذا تقادم يصير تاريخا والتاريخ إذا تقادم يصير أسطورة .

ومن الأسباب أيضا التخلص من مشكلة اللغة فنحن نشكو كما تعلمون من هذا الازدواج اللغوى إذ نكتب بلغة ونحدث بلغة أخرى ، فأى اللغتين ينبغى أن نتخذها فى المسرح : اللغة الدارجة التى نتكلم بها فى حياتنا اليومية أم اللغة الفصيحة التى نستعملها فى الكتابة ؟ الرأى الشائع فى الأوساط المسرحية عندنا أن نستعمل اللغة الفصيحة فى المسرحيات التاريخية والمسرحيات المترجمة عن اللغات الأجنبية وأن نستعمل الدارجة فى المسرحيات العصرية .

ولما كنت أنا شخصياً غير مقتنع بهذا الحل لأننى أتطلع إلى أن يكون لمسرحنا لغة موحدة حتى يتكون عندنا تراث من الأدب المسرحى نعتز به ونخلفه للأجيال القادمة فإن المشكلة عندى لم تزال قائمة تنتظر الحل . وأنا لا أستطيع أن أزعم أن اللجوء إلى الموضوعات التاريخية والأسطورية هو

الحل لهذه المشكلة فماذا نصنع فى المسرحيات العصرية ؟ ولكنى أعترف بأن من أسباب غرامى بالتاريخ والأسطورة التهرب من مواجهة هذه المشكلة وإن كنت قد حاولت مع المحاولين أن أجد لها حلاً آخر وذلك باستعمال لغة فصيحة جارية على قواعد الإعراب ولكنها تلتزم أسلوب اللغة الدارجة ومنطقها وبلاغتها مع استعمال الكلمات الدارجة التى لها أصل فى اللغة وإيثارها على مرادفاتنا التى لا تستعملها العامة ولنا عودة إلى هذا الموضوع عند الكلام على الحوار .

ويتصل بهذه الأسباب أيضاً قلة ميلى إلى الموضوعات الاجتماعية فمن بين المسرحيات التى كتبتها وهى تتجاوز العشرين عدداً لم أكتب غير مسرحية واحدة هى (الدكتور حازم) ومسرحية ثانية يمكن اعتبارها اجتماعية إلى حد ما وهى (الدنيا فوضى) .

ولانصرفى هذا عن الموضوعات الاجتماعية لتعليل آخر يتصل بالهدف الرئيسى الذى يقوم عليه كفاحى الفنى . وذلك أنى كنت دائماً أشد شعوراً بالأخطار الخارجية التى تهدد الأمة العربية فى حاضرها ومستقبلها ، منى بالأدواء الداخلية التى تفت فى عضدها وتقعده بمجتمعها عن مسايرة ركب التقدم ، أى أن الناحية السياسية كانت تستأثر بالجزء الأكبر من اهتمامى دون الناحية الاجتماعية لأن هذه الأخيرة يمكن إصلاحها على المدى الطويل بعد أن نضمن خلاصنا من السيطرة الاستعمارية ونجائنا من المؤامرات الدولية .

هكذا كان شعورى دائماً وإن كنت أحياناً حين أراجع نفسى وأناقشها بالمنطق الهادئ ربما أقتنع بأن الإصلاح الاجتماعى ينبغى أن

يكون أساساً للإصلاح السياسى وأن الأمة لا يستقيم لها تحررها السياسى ولا يرجى له الدوام والبقاء ما لم تكن مستندة إلى مجتمع سليم ، غير أن هذا الذى يقضى به المنطق سرعان ما يترك مكانه لما يمليه ذلك الشعور المتسلط على . ومن المعلوم أن الفن أوثق اتصالاً بالشعور المتأجج منه بالمنطق الهادئ فلا غرو أن تكون له الغلبة من حيث كونه حافزاً إلى الخلق الفنى .

وربما تتغير نظرتى هذه فى المستقبل فأتجه إلى المسائل الاجتماعية أكثر من المسائل السياسية وخاصة بعد أن أصبح فى الإمكان الاطمئنان على مستقبل الأمة العربية عقب ثورة ٢٣ يوليو التى حررت مصر من نير الاستعمار وقادتها وقادت الأمة العربية معها من نصر إلى نصر وصارت مبادئها دستور العرب فى كل مكان .

الموضوع والفكرة الأساسية

يحدث أحيانا أن تكون الفكرة الأساسية سابقة للموضوع بالنسبة للكاتب المسرحى ، وقد يكون الموضوع هو السابق للفكرة الأساسية . ففى الحالة الأولى يشعر الكاتب بأن فكرة ما تختلج فى أطوار ذهنه أو تعتلج فى أعماق نفسه وأنها تصلح نواة لعمل مسرحى إذا وجد لها الموضوع الملائم ، فلا يزال يبحث عنه حتى يعثر به فى واقعة من وقائع الحياة أو صفحة من صفحات التاريخ أو أسطورة من الأساطير فيقول لنفسه حينئذ . هأنذا قد وجدته !

وقد يجد الموضوع فى عمل فنى لكاتب سابق فيستعير قصته ويصوغ منها عمله المسرحى على وضع جديد ، وبالعلاج جديد يتفق مع فكرته الجديدة .

والموضوع المستعار لا ينفى أصالة الكاتب مطلقا بل ربما يؤكد لها ويبرزها بصورة أوضح من خلال المقارنة بين عمله هذا والعمل المستعار منه والموازنة بينه وبين الكاتب الذى سبقه ، حيث تسهل المقارنة والموازنة هنا لاتحادهما فى موضوع واحد . وحسبكم أن تعلموا أن معظم الموضوعات التى عاجلها شوسر وشكسبير كانت مستعارة من غيرهما ، فلو كان ذلك يقضى على الأصالة لكان هذان الكاتبان أقل الناس أصالة ولم يقل بهذا أحد .

وفى الحالة الثالثة يستهوى الكاتب موضوع ، سواء كان شخصية من الشخصيات أو موقفاً من المواقف أو حدثاً من الأحداث . ويملك عليه نفسه ويشعر أنه إذا عاجله فسينبتق عن عمل مسرحى جيد ، فيعتمد إلى درس هذا الموضوع والتعمق فيه واستكناه خباياه وتقليبه على جميع وجوهه حتى يهتدى إلى الفكرة الأساسية التى يمكن أن تربط بين خيوطه وتجمع بين أقطاره فى منطق واحد متسق مطرد . وقد يقترن الموضوع بالفكرة فلا يدرك الكاتب أى هذين سبق الآخر .

وهناك حالة رابعة فقد يحدث أحيانا أن يعانى الكاتب أزمة نفسية كأن يكون فى حزن شديد أو يأس مرير من جراء هموم خاصة أو كارثة قومية عامة أو خيبة أمل أو أى سبب آخر فيتلمس متنفساً عنها فى عمل

مسرحى يستوحيه منها ويتزجم به عنها دون أن يعرف بعد ماذا يكون موضوع مسرحيته أو فكرته الأساسية فما يزال يجتر أزمته النفسية يوماً بعد يوم حتى تأتى لحظة من لحظات الإلهام فإذا هو أمام موضوع يحمل فى أطوائه فكرة أساسية أو أمام فكرة أساسية تنداح فى ذهنه حتى تجدد إطارها فى موضوع ملائم .

وقد مرت بى هذه التجارب الأربع وسأورد لكم أمثلة توضح كل حالة من هذه الحالات من واقع المسرحيات التى كتبتها .

ولأبدأ بأول مسرحية طويلة كتبتها فى قضية فلسطين . وكان ذلك فى غضون سنة ١٩٤٤ قبل نكبة فلسطين الكبرى بثلاثة أعوام ، كانت القضية تشغلنى وكنت أتابعها باهتمام سواء فيما ينشر عنها فى الصحف أو ما يوضع عنها من الكتب . وذات يوم قرأت فيما قرأت أن الزعيم الصهيونى جابو تنسكى خطب مرة فى مجلس العموم البريطانى فضرب المنضدة بيده وهو يقول : « أعطونا رطل اللحم . لن ننزل أبداً عن رطل اللحم » . مشيراً بذلك إلى الوطن القومى الذى تضمنه وعد بلفور فقلت فى نفسى : قد وجدت الضالة التى كنت أنشدها . هذه الكلمة حجة على الصهيونية لا لها وسأأخذها الفكرة الأساسية لمسرحيتى واستحضرت فى ذهنى رواية تاجر البندقية لشكسبير ثم أعدت قراءتها فلمحت الخطوط الأولى للموضوع الملائم للفكرة ، ولم ألبث أن وضعت تصميم المسرحية ثم أخذت فى كتابتها بسهولة فائقة حتى أتممتها .

وكات الفكرة هى أن فلسطين العربية لا يمكن أن يقطع منها وطن قومى لليهود - بله دولة - دون أن يسيل الدم من الشرق العربى كله .

ومثل ذلك مثل رطل اللحم الذى اشترطه شيلوك اليهودى فى رواية تاجر البندقية على التاجر البندقي أنطونيو لا يمكن أن يقطع شيلوك من جسم أنطونيو دون أن يسيل الدم منه فيموت . فكما استحال تنفيذ هذا الشرط المخالف للقوانين الإنسانية مع أن أنطونيو نفسه قد رضى به ووقع على صك العقد الذى بينه وبين شيلوك ، يستحيل بالأولى تنفيذ وعد بلفور لا لمخالفته للقوانين الإنسانية فقط فيما يترتب عليه من حكم بالموت على شعب بأكمله هو الشعب العربى بدلا من شخص واحد هو أنطونيو ، بل لأن الذى أعطى هذا الوعد لا يملك إعطاءه وهو بلفور بخلاف أنطونيو الذى كان يملك أن يكتب الصك على نفسه .

أما الموضوع فقائم على استعارة قصة هذه المسرحية التى كتبها شكسبير لمسرحية جديدة تعالج قضية فلسطين ، معتمدة على وجوه التشابه بين القضيتين فى الصورة الإجمالية وفى كثير من التفاصيل حتى تنتهى ببطلان دعوى الصهيونيين كما بطلت دعوى ذلك اليهودى الجشع شيلوك وبتجرعهم كما جرم شيلوك .

وقد تنبأت فى هذه المسرحية التى أسميتها (شيلوك الجديد) بنكبة فلسطين وقيام الدولة اليهودية فيها وخروج أهلها العرب منها كما تنبأت بأن الحل الوحيد أمام العرب هو فرض الحصار الاقتصادى على هذه الدولة الدخيلة وحتى تختنق وتموت ، وقد قررت لذلك سبع سنوات من تاريخ قيامها . وإذا لم يتحقق حتى الآن هذا الجزء من النبوءة فلأن الحصار الذى فرضه العرب لم يكن محكما كما ينبغى إذ توجد به فجوات

من حدود بعض الدول العربية التى يأتقر رؤساؤها وحكامها بأوامر الاستعمار والصهيونية .

ويطول الحديث لو مضيت فى تلخيص المسرحية كلها . وفيما ذكرناه كفاية فى توضيح ما أردناه .

والفكرة سابقة للموضوع أيضا فى (مسمار جحا) فقد ظلمت زمنا أتهياً لوضع مسرحية عن القضية المصرية . والقضية المصرية كانت فى صميمها قضية احتلال الإنجليز لقنال السويس . فكيف أعالجها ؟ هممت أن أعالجها فى إطار عصرى ولكنى أشفت أن تكون النتيجة عملاً مسرحياً تكون الحقيقة التى يصورها أضيق من الحقيقة التى يمثلها الواقع . ألا توجد أسطورة أو قصة قديمة تصلح أساساً لموضوع هذه المسرحية ؟

وخطرت لى فى ساعة من ساعات الصفاء الذهنى الحكاية المعروفة عن مسمار جحا فأحسست فى الحال أن هنا المنجم الذى أبحث عنه . إنها حكاية لطيفة وهى فى الوقت ذاته حكاية شائعة تضرب بها الأمثال وتكاد تكون عالمية . ولكنى شعرت أيضا بالصعوبات التى تعترضنى فى هذا السبيل . فالحكاية تقول إن جحا كان له بيت فضاعت به الحال حتى فكر فى بيعه ، ولكنه وهو الذكى ذو الحيلة الواسعة رأى أن يحتال حتى يستولى على ثمن البيت دون أن يفقده فاشترط ذلك الشرط العجيب على المشتري أن يبقى له حق الاستمتاع بمسمار واحد معلق فى البيت لأنه فى زعمه عزيز عليه إذ ورثه عن آبائه ، ورضى المشتري بالشرط دون أن يدرك ما ينطوى عليه . وتم البيع وسكن المشتري البيت فأخذ

جحا يتردد عليه غبا بعد غب ليطمئن في زعمه على مسماره . ثم أخذ
يكثر التردد في أى وقت من أوقات الليل والنهار حتى ضاق الرجل
ذراعا فتك له البيت حرصا على راحته من مضايقة هذا الثقيل .

ووجه الإشكال هنا أن جحا هو الذى يمثل المحتل الدخيل ، وأن ذلك
المشترى المخدوع يمثل شعب مصر . فهل تستقيم مسرحية يكون بطلها
جحا المعروف شعبيا بنكاته ونوادره والجدير بأن يكون محل العطف
والمشاركة الوجدانية من قبل الجمهور ، إذا كان هو يمثل المحتل البغيض ؟
ثم هل تستقيم مسرحية عن القضية المصرية يصور فيها الشعب المصرى
بصورة المخدوع ؟

وكدت أعدل عن هذه الحكاية لعدم ملائمتها لما أنا بصددده . ولكن
تجاربى السابقة فى التأليف المسرحى جعلتنى أوقن بأن الصعوبات التى
تعرّض سبيلى عند الشروع فى مسرحية جديدة ، قد تكون سببا
للوصول إلى صورة فنية أروع وأعظم ما كنت لأهتدى إليها وما كانت
لتخطر لى على بال لو لم تعرّضنى تلك المشكلة . وتضطرّنى إلى البحث
لها عن حل .

لذلك صممت على اختيار هذه الحكاية كفكرة أساسية وأنا واثق
أننى سأجد لهذه المشكلة حلا ولو بعد حين .

ومضيت أتلمس الموضوع فطفقت أدرس ما هو ماثور من نوادر هذه
الشخصية الفولكلورية ، وكلما مضيت فى دراستها ازدادت ثقة بأنى
أحسن الاختيار ، وأن إلهامى الأول كان صادقا . فليس أصح من هذا
الموضوع لعلاج هذه القضية ، فالشعب المصرى معروف منذ القديم بحب

النكتة وأنها تجرى فى دمه ، وأنه كان يستعين بها دائماً فى السخرية بحكامه الظلمة والانتقام منهم فى سلسلها صواعق على رؤوسهم دون أن يكون لهم سبيل عليه فأى موضوع أصلح من هذا الموضوع الذى يكون البطل فيه هذه الشخصية الفولكلورية التى صارت علما على روح النكتة الفكهة ، والسخرية اللادعة تضرب بنوادر الأمثال ؟

وما لبث الموضوع أن استقام لى حين اخترت من نوادره ما يتسق مع الصورة العامة التى بدأت تتجسد فى ذهنى لهذه الشخصية التى ستلعب دور البطل فى المسرحية ، وأخذت جوانب الشخصية تتكامل عندى مرتبطة بالأحداث التى يقوم عليها الموضوع ومتصلة بوشائجها مع الأفراد الآخرين الذين بدأت شخصياتهم أيضا تتبلور فى طول الطريق . ولعل من المستحسن أن أخص لكم هذه المسرحية فى إيجاز لزوا كيف تم حل المشكلة التى أشرت إليها من خلال الموضوع الذى التأم أخيراً مع تلك الفكرة الأساسية .

تبدأ المسرحية حين انتهت الحال بجحا إلى وظيفة الوعظ والإمامة بأحد جوامع الكوفة بعد أن تقلب فى كثير من المهن المختلفة فأخفق فيها جميعاً بسبب مثاليته وعدم خضوعه للأوضاع الاجتماعية التى لا يقرها عقله أو ضميره وقد وجد فى هذه الوظيفة الجديدة مجالا واسعا لنقد تلك الأوضاع الشاذة فى بلد يسوده حكم الأجنبي المحتل متعاوناً مع الإقطاع الذى يتحكم فى سواد الشعب .

وضاق والى الكوفة ذرعا بأسلوب جحا الساخر القائم على التنكيت والتلميح فعزله من الوظيفة حتى لا يثير عليه جماهير الشعب . وأصبح

جحا بلا مورد يعيش منه فأنبته زوجته (أم الغصن) على ذلك ، وكانت امرأة سليطة اللسان لا يخشى زوجها شيئا فى الحياة مثلا سلاطة لسانها فأخبرها أنه يعتزم أن يعود فيعمل فلاحا كما كان . فذكرته بشؤمه ونكد طالعه وأنذرتة أنه إن فعل فسيأتى الجراد ويأكل زرعه كما حدث من قبل ، وكان جحا يتطير من قولها وإذا بالجراد يأتى فعلا فينكب الفلاحين جميعاً وكان من أثر ذلك أن اشتط الإقطاعيون فى مصادرة ما فى أيدي الفلاحين حتى زرع ذلك فى نفوسهم بذور الثورة .

فما كان من جحا إلا أن اتفق مع (حماد) ابن أخيه وكان فلاحا فقاد حماد ثورة الفلاحين ، وذهب جحا إلى العاصمة (بغداد) ليفاوض الحاكم الدخيل فاستطاع بلباقته ودمائه أن يقنعه بوجوب إنصاف الفلاحين وتحقيق مطالبهم وبذلك هدأت الثورة . وأراد الحاكم أن يصطنع جحا فولاه منصب قاضى القضاة فى الدولة فحسن حاله وأصبح موسرا يسكن فى دار فخمة بالعاصمة .

ولكن جحا لم يخلق للنعيم والدعة ، بل للكفاح فى سبيل الحق والعدل فلم يلبث أن ضاق بتلك الحياة الرغدة التى أفسدت زوجته أم الغصن فى رأيه فركبها الغرور والصلف فصارت لا تطاق . كما أخذ ضميره الحر يؤنبه على موادعته للحاكم الدخيل بحكم منصبه هذا ، وعلى أن كان سببا فى تمكين نفوذه بعد أن كادت تلك الثورة تعصف به .

لذلك قرر بالاشتراك مع ابن أخيه حماد ليعملا على إثارة جماهير الشعب على الحاكم الدخيل نفسه فى هذه المرة كما أثارا الفلاحين على الإقطاع من قبل . وبنفس الأسلوب الذى يتقنه جحا كل الإثقان ،

فوهب داره لحماذ ثم باعها حماد لتاجر يدعى (غانم) بعد ما اشترط عليه فى العقد أن يبقى لحماذ حق التمتع بمسماز معلق فى الدار . فصار بضايقه بعد ذلك من أجل هذا المسماز ، فشكاه غانم إلى القضاء وأخذ جحا قاضى القضية يؤجل الفصل فى هذه القضية حتى شاع أمرها فى البلاد وصارت حديث الناس فى كل مكان وأدركوا شيئا فشيئا مدلوها السياسى فيما يتعلق بقضية بلادهم ، وذلك ما قصده جحا من هذا التدبير إلى أن امتلأت النفوس بالثورة ثم قامت الثورة فعلا بعد أن أعلنها جحا جهارا فى آخر جلسة للقضية فى المحكمة .

وقبض على جحا وزج به فى السجن ، وفى السجن حاول الحاكم الأجنبى أن يستميله إليه ليدعو الناس إلى الهدوء والسكينة فأشبعه جحا نكتا وسخرية ولما يئس الحاكم منه وكل به زبائنه ليعذبه ولكن الثورة كانت قد اندلعت نيرانها فى البلاد واضطرت الحاكم إلى التسليم فخرج جحا منتصرا محمولا على الأكتاف .

هذا هو الخط السياسى فى المسرحية . وهناك خط آخر يمتزج به ويتفاعل معه من أول المسرحية إلى آخرها وهو ما يتصل بالجانب الاجتماعى والإنسانى من حياة جحا وأسرته المكونة من امرأته أم الغصن وقد سبقت الإشارة إليها ، وابنه (الغصن) الذى ورث من أبيه خياله الخصب الواسع دون أن يكون له عقله وحصافته : فكان بذلك مشارا لمفارقات عجيبة كان لها أثرها فى مجرى الأحداث . ثم ابنته (ميمونة) تلك الفتاة الوديدة التى أحبت حمادا ابن عمها وفى نية أبيها أن يزوجهها له غير أن أمها كانت تعارض فى ذلك لأنه صعلوك وهى تريد أن

تزوجها لوجيه من أبناء البيوتات ، منساقا في ذلك مع ما فطرت عليه من حب الفخفخة والجاه . فكانت هذه المسألة مثارا للصراع الدائر بين جحا وامراته إلى أن انتهى في الختام بزواج ميمونة من ابن عمها حماد فتعانقت أفراح عرسها بأفراح الشعب يوم الجلاء .

ومن هذا ترون واضحا كيف جاء حل المشكلة التي واجهتني في البداية . فجحا وهب داره لحماد . وحماد هو الذى باعها لذلك التاجر غانم واشترط عليه ذلك الشرط ، وجحا هو الذى نظر في القضية . وكان كل هذا باتفاق وتدبير من جحا وحماد للوصول إلى ذلك الهدف السياسى وهو إيقاد نار الثورة لتحقيق الجلاء .

هذان مثالان لما تكون فيه الفكرة الأساسية سابقة للموضوع وسأورد لكم الآن مثالا لما يكون فيه الموضوع سابقا للفكرة الأساسية :

سر الحاكم بأمر الله :

استهوتنى شخصية هذا الخليفة الفاطمى بما تنطوى عليه من غموض وإبهام . وبما تثيره فى النفس من جلال ورهبة ، وفى الدهن من تطلع إلى المجهول وتشوق إلى معرفة الحقيقة . وكلما أمعنت فى دراسة تاريخه ازدادت يقيناً أننى أمام شخصية عجيبة غريبة شديدة التعقيد صالحة لتكون موضوع مسرحية من الطراز الأول إذا استطعت أن أجسد المفتاح الضائع لشخصيته ، وأقول « الضائع » لأن معظم من كتبوا عنه من المؤرخين اعتبروه مجنوناً أو ذا لؤثة عقلية فاستراحوا إلى هذا الحل وذلك لما رأوا فى أعماله وتصرفاته من الشذوذ والتناقض والاضطراب .

ها هو ذا الموضوع قد استهوانى ولكنى لم أهتد إلى البؤرة اللامعة التى يمكن أن اتخذها الفكرة الأساسية . وكان عندى إحساس غامض بأننى سأجدها ولو بعد حين وبأنها ستكون هى نفسها ذلك المفتاح الضائع الذى أبحث عنه .

وصحبت الحاكم زمنا أستعرض أعماله وأتفهم أقواله وأستجلى غموضه وأستحضره فى ذهنى حين يكون بين الناس وحين يخلو إلى نفسه وفعلت مثل ذلك بالشخص الأخرى من ذوى قرابته ومعاصريه بين رجال ونساء وموقفه منهم وموقفهم منه وبعد لآى لاح لى شىء كهئية المفتاح فاخطفته بقوة وجعلت أجربه فى الأبواب المغلقة عندى دون هذه الشخصية فإذا هو يفتحها بابا بابا فأدركت حينئذ أننى قد عثرت على المفتاح المطلوب .

وخلاصة ذلك أن الحاكم بأمر الله كان من أبعد الناس عن الجنون وإنما كان رجلا أمعن فى التصوف والتعلق بالحب الإلهى حتى نازعته نفسه إلى الانسلاخ من بشريته ليصل إلى مرتبة الكمال الإلهى حين يكون - وهو بعد فى جسده - روحا شفافة متصلة بالروح الأكبر السارى فى الكون كله وهو الله .

وكان سبيله إلى ذلك أن قام برياضة نفسية شاقة فعمد إلى جميع مظاهر الضعف فى الإنسان من خوف وعجز وكسل وحرص وبخل وشهوة وكبر ورحمة فاقتلعها من نفسه بعزيمة جبارة لا تعرف التردد . ومن ثم ظهرت تلك الأعمال الغريبة التى تبدو فيما يظهر للناس متناقضة وليس بها تناقض بل هى فى الحقيقة تجرى على منطق جديد لا عهد

للناس بمثله فأنكروه ولكنه متسق مع هذا الهدف الكبير الذى يسعى إليه .

وما كان فى نيته قط أن يعلن ألوهيته للناس أو يدعوهم إلى عبادته كما وقع منه أخيراً لولا دخول حمزة الزوزنى فى حياته . وحمزة هذا من أخطر الرجال المغامرين الذين كانوا يعملون لهدم الدولة الإسلامية . وقد قدم إلى مصر من فارس لهذا الغرض ، وكان ذا ذكاء وقاد فاستطاع أن يدرك حقيقة الحاكم وسريته التى يخفيها عن الناس بعد ما مكث فى مصر زمنا يعمل فى صبر وجلد لكشف هذه الحقيقة .

وبهذا السر الذى كاشف به الحاكم وقدمه له فى كتاب زعم أنه مكتوب من عهد قديم وأنه توارثه عن آبائه استطاع أن يتسلل إلى مكنن الضعف فى هذا الشخص الجبار فاستدرجه إلى دعوى الألوهية وما تبع ذلك من أحداث عاقته عن المضى فى رياضته الأولى وأفضت به إلى الانهيار إذ اجتراً جنوده بتدبير أخته (ست الملك) فأكرهوه على الرضوخ لأمر ما كانوا ليجرؤوا على مجرد اقتراحها عليه من قبل .

وأدرك الحاكم حقيقة حمزة ولكن بعد فوات الأوان . وهاله أن يرى هدفه الكبير قد تحطم على هذه الصورة وأن تلك الرياضة الطويلة الشاقة التى قام بها فى سبيله قد ذهبت هباء فلم يعد يطيق العيش كما تعيش الأنعام فدعا ربه دعاءً حاراً أن يقبض روحه إليه ، وكأنما سمع الله دعاءه فما لبث أن علم أن أخته ست الملك قد دبرت كميناً لاغتياله عندما يخرج كعادته فى الليل إلى خلوته بجبل المقطم . فحمد الله على ذلك

وخرج فى تلك الليلة لتنفيذ فيه المؤامرة المدبرة حتى يموت ميتة تليق بذلك المطلب العظيم الذى كرس له حياته .
وينبغى لى أن أصارحكم بأنى على توفيق فى هذه المسرحية من حيث فكرتها وموضوعها قد خائننى التوفيق فى اختيار بعض العناصر التى ألفت منها الموضوع إذ حشرت فيه أموراً من سيرة الحاكم لاصلة لها بالفكرة الأساسية ، وأذكر على سبيل المثال ما روى عنه أنه كان يعاقب الناس على أكل الملوخيا ، فهذه مهما صحت روايتها فى التاريخ لا محل لإيرادها فى المسرحية . وقد سبق أن أوضحت لكم أن مهمة الكاتب المسرحى ليست تسجيل ما حدث فى التاريخ كما حدث فتلك مهمة المؤرخ وإنما مهمته أن يخلق عالماً جديداً تقع فيه الأحداث وتتصرف فيه الأشخاص وتتعدد فيه المشكلات وتصدر عنه النتائج مستهدياً بالفكرة التى جعلها أساساً لمسرحيته .

الموضوع والفكرة الأساسية

ذكرت لكم فى المحاضرة السابقة أمثلة من تجاربى الخاصة توضح كيف تكون الفكرة سابقة للموضوع عند الكاتب المسرحى ، ثم كيف يكون الموضوع سابقاً للفكرة ، وهاكم الآن الحالة الثالثة وهى أن يقرن أحدهما بالآخر فلا يدرى الكاتب المسرحى أيهما هو السابق وأيها هو اللاحق .

مسرحية سر شهر زاد :

كنت أقلب كتاب ألف ليلة وليلة بحثاً عن قصة تصلح موضوعاً لمسرحية أعالج فيها مشكلة المرأة ومكانها من الرجل فقد كانت هذه المشكلة تلح عليّ في ذلك الحين وتريد لها مخرجاً في عمل مسرحي .

و كنت أتلّمس القصة المطلوبة بين القصص الفرعية (الحكايات) التي تقصها شهر زاد في لياليها على شهريار . وبينما أنا كذلك إذا بذهني يلتفت فجأة إلى القصة الرئيسية وهي قصة شهر زاد نفسها مع الملك شهريار ثم إذا أنا أستحضرها وأسرح فكري في تأملها وإذا بإحساس مبهم بأن فيها لقوة إيجانها مجالا بعد لتفسير جديد على كثرة من عاجلونها من قبل وفي طليعتهم من كتابنا الكاتب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم .

وأعدت التأمل فيها ، فإذا فكرة جديدة تنقدح لي مثل هذه الشرارة الصغيرة ، ثم أخذت تكبر وتتسع حتى صارت شعلة تضيء ما حولها شيئاً فشيئاً فتتضح لي جوانب الموضوع شيئاً فشيئاً كذلك كلما سرى الضوء إليها حتى استنار الموضوع كله ولم يبق فيه ركن مظلم .

وهكذا اقترن الموضوع بالفكرة فلم أستطع أن أثبتني أيهما سبق الآخر لأن الفكرة كانت تزحف في ذهني فوق بساط الموضوع الذي كان كأنه مطوى فأخذ ينشر شيئاً فشيئاً كلما تقدمت الفكرة في الزحف كأنما كانت لا تريد أن تنقل قدمها إلا على ذلك البساط .

وهذه بالطبع صورة مجازية أراني مضطراً إلى استعارتها للتعبير عن الطريقة التي تمت بها المراحل الأولى لهذا العمل المسرحي .

أما حقيقة ما حدث فقد كان يرد على ذهني في سلسلة من الأسئلة لا أستطيع الآن أن أتذكر كيف كان ترتيبها في الورد . ولكني أذكر أنها كانت سؤالاً يسألني إلى سؤال آخر وهكذا دواليك . وكان كل سؤال يرد بمثابة محاولة تقوم بها الفكرة لنقل قدمها إلى الأمام وكان كل جواب بمثابة شعاع يضيء موقع القدم .

لماذا قتل شهريار زوجته الأولى ؟ لأنها خانته مع عبده الأسود ؟
القصة تقول ذلك .

ولكن لماذا خانته زوجته ؟ ومع من ؟ مع عبده الأسود ؟ ألم تجد في رجال القصر من شاب جميل تصطفيه حبيباً لها ؟ وهبها أغرمت بالعبء لانحراف جنسى فيها أليس الأشبه بمثلها أن تحتاط حتى لا ينكشف أمرها لأحد من البلاط فما ظنك بزوجها الملك نفسه ؟ .

وهبها فعلت ذلك فقتلها الملك لذلك ، فلماذا أعلن هذه الفضيحة في الناس ، أليس الأجدر به أن يسترها ولا يدع أحداً يعلم بها ؟ أليس العرض الذي انتهك هو عرضه ؟ أليس إشهار ذلك مما يغض من مقامه بين رعيته ؟ أما كان يستطيع أن يقتلها ويزعم للناس أنها ماتت ؟ وكم في ظلام القصور من جرائم ترتكب ونفوس تزهق وأعناق تقطع دون أن يعلم الناس عنها شيئاً .

ثم ماذا يدفعه بعد ذلك إلى أن يدخل كل ليلة بعذراء حتى إذا أدرکها الصباح قتلها ؟ .

القصة تقول إنه ينتقم بذلك من جنس النساء .

ولكن أكان شهريار قاسى القلب إلى هذه الدرجة ؟ ألم يبرد غليل انتقامه بعد ما قتل عشرات منهن ؟ ألم يجد بينهن واحدة قملك قلبه أو تأسر له أو تثير فى نفسه الرقة والعطف ؟ أكان من اليسير عليه أن يفضى إلى إحداهن ثم يسلمها إلى سيف الجلاد ؟ .

وهبوا أن شهريار بهذه الصورة الشاذة المنكرة من القسوة وتبلد الحس وموت الشعور فكيف استطاعت شهر زاد أن تحمى نفسها من هذا المصير النعس ؟ أبتلك القصص والحكايات التى تروىها له ليلة بعد ليلة ؟ . هكذا تزعم القصة :

ولكن هل يعقل أن ملكا بهذا الوصف وفى سورة غضب كهذا الغضب المزعوم يمكن أن يرده عن دأبه سماع هذه الحكايات كأنما هو طفل صغير فى غاية السذاجة والبراءة ؟ .

وإذا كان يبقى عليها ليسمع بقية قصة أو حكاية أعجبتة منها فما الذى يمنعه أن يحملها على المضى فى قصتها تلك حتى بعد أن يطلع الصباح ؟

كانت عشرات من هذه الأسئلة تترايب فى ذهنى فلا أجد لها جوابا مقنعاً فى ظاهر القصة المروية ، ولكن جوابا واحداً يمكن أن يستنتج من طوايا هذه القصة كان هو الذى يدور فى ذهنى منذ انقذت تلك الشرارة الأولى التى أشرت إليها فى مطلع هذا الحديث .

هذا الجواب ، هو أن شهريار كان كاذباً على نفسه وعلى الناس حين زعم أن زوجته خائنه مع العبد وإنما الحقيقة أنه كان قد أسرف على نفسه فى الخمر والنساء حتى ضعفت مُنته وأصابته عوارض العنة . وإذا كان

رجلا زئر نساء يتباهى بحظوته لديهن وقوته عليهن فقد كبر عليه أن يصاب بهذه العوارض وهو بعد فى عنفوان الشباب فمنى بأزمة نفسية قاسية وأظلمت فى عينه الدنيا إذ لا معنى للحياة عند مثله بغير هذا المتاع الذى يراه غاية الغايات فى هذا الوجود .

وكانت زوجته الملكة - وقد اخترت لها اسم بدور - غير مدركة هذه العلة التى طرأت عليه فلا ترى فى عزوفه عنها أو قلة إقباله عليها إلا أنه مشغول عنها بعشيقاته وجواريه وحظاياه كدأبه فيما مضى وأنه انصرف عنها الآن من قبيل السامة والملل ، فأوحى إليها خاطرها أن تدبر مكيده بيضاء لتثير غيرته وتذكره بما فرط فى حقها وقصر فى رعايتها فاتفقت مع قهرمان القصر أن يحضر لها عبداً خصياً ليضبطه زوجها الملك عندها فى مخدعها فإذا ثار وغضب أعلنت له حقيقته وحقيقة تدبيرها فوجدت لها سبيلا إلى معاتبته وشكاية حالها إليه من ظلمه وهجرانه .

واستجاب القهرمان لمشيئتها ولكنه فى اللحظة الأخيرة خائنه شجاعته وذلك عندما أقبل شهریار ليدخل مخدع الملكة بدور حسب الخطة المرسومة ، فكاشفه بسر التدبير الذى قامت به الملكة مبيناً له غرضها البرئ من ذلك ومؤكداً له أن العبد من الخصيان الذين لا أرب لهم فى النساء .

فماذا صنع شهریار ؟ لقد ظل زمناً منذ أصيب بهذه العلة وهو يشتهي الملكة لأنه يحبها حباً عظيماً . فلا يقدر عليها فأخذت تراوده فكرة التخلص منها لو كان إلى ذلك سبيل . إنه يتمنى زوالها لأن فى بقائها آية تذكره على الدوام بعجزه هذا فتضاعف ألمه وشقاه . إنها ليست

كجواريه وحظاياه ففى وسعه إذا حاول الاتصال بإحداهن فأعجزه ذلك أن يركلها بقدمه كأنها ليست رضا له فتصرف من عنده دون أن تثور أو تحتج . ولكن ماذا يصنع فى بدور وهى زوجته الملكة ؟ ليس من حل أمامه هذه المشكلة إلا الخلاص منها .

وها هو ذا قد أمكنته الفرصة الساعة ولينتهزها وليقتلها وليقتل العبد معها ثم ليعلن هذه الفضيحة فى الناس إمعاناً منه فى ستر الحقيقة التى يحرس كل الحرس على كتمانها عنهم .

غير أنه أحس - بعد أن قتلها - العلة التى يشكو منها قد تضاعفت وتفاقت لأنه بقتلها قد أكد هذا المعنى لنفسه ، فأصبح عاجزاً كل العجز فتعاظمت الأزمة فى نفسه حتى صارت مثل الجنون فكان إذا حاول مع امرأة فعجز قتلها لتلا تكشف سر عجزه .

وخوفاً من انكشاف هذا السر وليوهم الناس بنقيض الواقع صار يأمر أن تزف إليه كل ليلة فتاة عذراء فيقتلها فى الصباح زاعماً أنه ينتقم بذلك من جنس النساء كافة منذ خائنه زوجته وهو ما هو فى القوة والبأس .

وحين يأتى دور شهر زاد بعد ذلك كانت تعلم هذا السر فيه ، أخبرها به مؤدبها وأستاذها رضوان الحكيم الذى هو فى نفس الوقت الطبيب الخاص للملك وهو الشخص الوحيد الذى كان يعرف علة شهر يار . وقد أخبر شهر زاد بهذا السر لتتقى به بطشه وكانت شهر زاد ذكية لماحة فأدركت ما قصد إليه أستاذها ليحفظها من المصير الرهيب .

وكان السلاح الذى استعملته شهر زاد هو أن لا تمكنه من التجربة بأن تشغله عنها بكل ما تسعفها به حيلتها فتتوسل إليه أن يمهلهما لأنها صغيرة بعد لا تقوى على رجل فاتك مثله تسمع عنه أنه أكبر زئر نساء أنجبته امرأة .

وبمثل هذه الطريقة وشىء من حلو الحديث وحسن التصرف استطاعت أن تجعله يتنفس الصعداء لأن رجولته لم توضع موضع التجربة فلم يشعر بمرارة الخيبة وهوان العجز .

وحلا له هذا الأسلوب منها فجارها فيه وصار يجلس إليها ليلة بعد ليلة يستمتع بجمال وجهها وحلو حديثها مكتفيا بذلك نزولا على رغبتها فى إمهالها برهة من الوقت تأنس به فى خلالها حتى تكبر قليلا فتصير أهلا لرجل فاتك جبار مثله .

وكان طيبه رضوان يعالجه فى خلال تلك البرهة بأدويته ومقوياته فكان لذلك أثره فى استرداد قوته كما كان لسلوك شهر زاد معه وسياستها الناعمة أثره فى إعادة الثقة برجولته إلى نفسه .

وأدركت شهر زاد بغريزة الأنثى ذات ليلة أن الملك قد استعاد قوته فاستجابت له . وشعر شهريار حين نجاح كائما ولد من جديد فأحب شهرزاد حباً جارفا وعدّها مصدر سعادته وبهجته فصار لا يعصى لها أمراً . وأخذت هى تسير به فى طريق السداد والاستقامة فانقطع عن مجالس الخمر والسهو وشجعته على الرياضة وركوب الخيل للصيد والقنص فحسنّت صحته وزادت قوته .

(فن المسرحية)

ولكن أيمكن أن ينعم بالسعادة حقاً وضميره مثقل بجريمته الأولى أن
قتل زوجته وهو يعلم أنها بريئة ثم بالجرائم التى تلتها إذ كان يقتل
العذارى صباح كل ليلة .

لم يستطع أن يتخلص من تأنيب الضمير وعز عليه أن يكدر هذا
التأنيب النفسى صفو السعادة التى عادت إليه بعد أن فقدوها ، فحدث
من هذا الصراع النفسى العنيف أن أصيب بعلة اليقظة النومية . فكان
يقوم آخر الليل وهو فى نومه دون أن يشعر فيذهب إلى الحجرة التى قتل
فيها زوجته بدور ويده سيف فيخيل إليه أنه يراها تحونه مع العبد فيقتلها
ويقتل العبد ثم يعلق السيف فى مكانه ويعود للنوم فى فراشه بجانب شهر
زاد وبهذه الطريقة اللاشعورية تطمئن نفسه ويستريح ضميره .

وشكت شهر زاد ذلك إلى رضوان الحكيم فأبأها بأن الطريقة
الوحيدة لعلاجها هى أن تجعله يواجه الحقيقة التى يتهرب من مواجهتها
وذلك بأن تمثل معه نفس الدور الذى مثلته بدور .

وهكذا دخل شهر يار ذات يوم مخدع شهر زاد فوجد عندها عبداً
أسود فهاج وماج وانطلق ليأخذ السيف فأسرعت شهر زاد فحلت
العمامة عن رأس العبد ونزعت جلبابه فإذا هذا العبد هو جاريتها
السوداء صالحة .

ولم يجد شهر يار أى هرب من مواجهة الحقيقة البشعة فانهار على
الأرض يبكى ويستغفر ويكفر عن خطاياها جهد ما استطاع .

أما الحالة الرابعة وهى أن يعانى الكاتب أزمة نفسية كأن يكون فى
حزن شديد أو يأس مرير فيتلمس متنفساً عنها فى عمل مسرحى

يستوحيه منها ويتّجسم به عنها دون أن يعرف بعد ماذا يكون موضوع مسرحيته فقد وقع لى مثل ذلك فى مسرحيتى (مأساة أوديب) .

كان ذلك على أثر حرب فلسطين التى انتهت بانتصار اليهود على الجيوش العربية مجتمعة فقد انتابنى إذ ذاك شعور باليأس والقنوط من مستقبل الأمة العربية وبالحزى والهوان مما أصابها . أحسست أن كل كرامة لها قد دüst بالأقدام فلم تبق لها كرامة تصان وظللت زمناً أرزح تحت هذا الألم الممض الثقيل ولا أدرى كيف أنفـس عنه .

ولعل ذهنى فى خلال ذلك كان يبحث عن الموضوع دون أن أشعر ثم اهتدى إليه ذات يوم دون أن أشعر أيضاً إذ تذكرت فجأة تلك الأسطورة اليونانية التى خلدها سوفوكليس فى مسرحيته الرائعة (أوديب ملكا) فأحسست أن فيها لا فى غيرها يمكن أن أجد المتنفـس الذى أنشدته .

ولعلكم تعجبون من هذا كما عجت أنا نفسى فى أول الأمر إذ أى صلة بين نكبة العرب فى فلسطين وبين هذه الأسطورة اليونانية ؟ غير أنى أدركت بعد ذلك سر هذا الاختيار . ذلك أنى كنت أحس فى أعماق نفسى كأن الذنب الذى ارتكبه العرب فى فلسطين والحزى الذى لحقهم من جرائه ولا يوازيه فى البشاعة غير ذلك الذنب الذى ارتكبه أوديب فى حق أبيه وأمه والحزى الذى لحقه من ذلك .

تناولت مسرحية سوفوكليس الخالدة فطفقت أقرؤها فكأنما كنت أقرأ مسرحية أخرى غير تلك التى أعرفها إذ كانت تحمل لى معنى جديداً فى هذه المرة يختلف عن معناها القديم . ومن خلال هذا المعنى الجديد

تكشف لى تفسير جديد لهذه الأسطورة على نحو يشبه فى كثير الوجوه ما حدث لى فى تفسير أسطورة شهريار وشهر زاد .

و خلاصة ذلك أن النبوءة التى تنبأ بها وحى أبولون ل لا يوس ملك طيبة بأن سيولد له غلام يقتل أباه ويتزوج أمه إنما كانت فريسة اختلقها الكاهن الأكبر لمعبد دلف برشوة أخذها من (بوليبي) ملك كورنث الذى كان المتنافس للملك طيبة على زعامة هيلاس ، وكان بوليبي عقيما فلما بلغه أن جو كاستا زوجة لا يوس قد حملت أكلت الغيرة قلبه وخشى أن ينتقل ملكه إلى أسرة لا يوس إذا أعقب لا يوس ومات هو دون أن يكون له عقب .

فتعهد الكاهن الأكبر بأن يجعل له مخرجا إذا دفع مبلغا كبيرا من المال للمعبد فاختلق تلك النبوءة وأعلنها ليدفع لا يوس إلى التخلص من ابنه إذا ولد ، ولكن الكاهن الأكبر لم يكتف بذلك ، بل أراد - كمعادته فى إيهام الناس بصدق نبوءاته - أن يحقق تلك النبوءة بالفعل فأوعز إلى الخادم الذى كلفه لا يوس بقتل ابنه الطفل فى الجبل ألا يقتله ، بل يسلمه إلى راع من كورنث ليذهب به هذا الراعى إلى بوليبي . وقد سر بوليبي فأى انتقام أشهى لديه من أن يربى هذا الطفل حتى يكبر فيحقق تلك النبوءة فى خصمه اللدود ؟

وبلغ أوديب مبلغ الرجال وهو يعتقد أنه ابن ملك كورنث فأوعز الكاهن الأكبر إلى أحد الشبان الذين يعاقرونه الخمر قطعن فى نسبه فلما ثار أوديب وهم أن يفتك به قال له الشاب : لا تعجل . . اذهب فاستفت معبد دلف فإن وجدتنى كاذبا فاقتنى . وكان أوديب على

جراته واندفاعه حليماً فكف عنه وذهب يستفتى معبد دلف حيث استقبله الكاهن الأكبر فأكد له صدق ما سمع وأخبره أنه فى الحقيقة ابن لاىوس ملك طيبة وجوكاستا ملكتها ، وقص عليه أمر النبوءة القديمة وحذره من الذهاب إلى طيبة .

ولكن أوديب الحر العقل السليم الفطرة لم يؤمن بهذه الخرافة فأقسم ليذهبن إلى طيبة لا ليقتل أباه كما تزعم النبوءة . بل ليقتل رأسه ويكون ابناً باراً به . فأعاد عليه الكاهن التحذير فلم يزد أوديب إلا تصميمًا على التحدى . وكان هذا فى الواقع هو ما قصده الكاهن من تحذيره . إذ كان يعرف فى طبعه العناد .

وفى الوقت الذى كان أوديب ماضياً إلى طيبة ، كان الكاهن قد بعث إلى لاىوس من أخبره بأن ذلك الطفل الذى ظن أنه تخلص منه لم يمت وأنه قادم إلى طيبة من كورنث فليعرضه فى طريقه وليقتله قبل أن يقتله . وهكذا التقى أوديب ولاىوس فى الطريق ذى الثلاث الشعب بين طيبة وكورنث فأراد أوديب أن يقبل رأس أبيه ، ولكن لاىوس ما أمهله أن حمل عليه هو ورجاله ليقتلوه فما كان من أوديب إلا أن دافع عن نفسه وأسفرت المعركة عن قتل لاىوس وقتل رجاله ما خلا شخصاً واحداً هو الذى رجع إلى طيبة بالخبر .

وكبر على أوديب أن يتحقق الشطر الأول من النبوءة على هذا الوجه . فعاد مغموماً إلى كورنث تنتابه الهواجس والشكوك . أحقا قتل أباه ؟ ولكن ما يدريه ألا يكون كلام الكاهن مختلقاً كله ؟ واتصل به الكاهن الأكبر وجعل يؤنبه على ما فعل . وقال له هأنذا قد قتلت أباك

فحذار أن تذهب مرة أخرى إلى طيبة وإلا تزوجت أمك . حذره من الذهاب ليغريه بالذهاب .

وخلا أوديب إلى نفسه يفكر ويقدر . ثم قرر أنه حر العقل وحر الإرادة وأنه إن كان قتل أباه كما يزعم المعبد . فذلك دفاعا عن نفسه ، ولكن أى قوة فى الأرض أو فى السماء تستطيع أن تدفع به إلى الزواج من أمه ؟ فليتحذ هذه النبوءة الهوجاء وليمض إلى طيبة ، وكان الكاهن الأكبر قد دبر حيلة أخرى من حيله هى ظهور ذلك الوحش الذى يتخطف الناس خارج أسوار طيبة وأوعز إلى كريون شقيق جوكاستا أرملة لايوس أن يعلن فى الناس أن من يخلص طيبة من هذا الوحش فله عرش طيبة ويد ملكتها الأرملة .

فلما وقف أوديب أمام أبى الهول الصرع له أبو الهول لأنه كان فى الواقع دمية على صورة الوحش بداخلها أحد الكهنة ، وقد أمر أن ينصرع لأوديب فما كان من أهل طيبة إلا أن حملوه على الأعناق إلى القصر فالتف به وصفاء القصر وأخذوا يغسلونه ويطيّبونه ويكسونه فاخر الثياب وهم يطرون له جمال جوكاستا وأنه لشبابه النضر أصلح لها من لايوس الشيخ . كل ذلك وأوديب يهم أن يصيح بهم : كفوا عن هذا .. إن جوكاستا هذه هى أمى ، ولكن لسانه يتعقد فى كل مرة وتموت الكلمات فى شفتيه ويقول فى نفسه : من يدرى لعل هذه ليست أمى ولعل لايوس ليس أبى .

وجليت عليه جوكاستا فى ثياب الزينة كأنها عروس عذراء . فتمثل له فى تلك اللحظة خيال أمه ميروب ملكة كورنث كأنها تقول له لائمة:

أفى الحق يابنى أن تتزوج بعيدا عن أمك دون أن تشهد عرسك وتفرح بزفافك .

فطار من ذهنه حينئذ كل شك فى أنها ليست أمه وأيقن أنه لم يقتل أباه فاطمأنت نفسه لهذا الخاطر الذى أراحه من شعوره بالإثم فى قتل أبيه.

وهكذا عاش مع جو كاستا سبع عشرة سنة فى سعادة وحب وولدت له أولاده الأربعة دون أن يخطر بباله أى ظن من الشك . فقد أيقن أن المعبد كان كاذبا فى كل ما ادعاه . فازداد به كفرا . ولولا مراعاته لعقيدة الناس فيه لأنزل بالكاهن العقاب .

إلى أن جاء ذلك الطاعون الذى فتك بأهل طيبة فتوسل أهلها إليه أن يستفتى المعبد لعل الآلهة ترفعه عنهم فكان أوديب يسخر فى سره من ذلك ويقول : وا رحمتا لهذا الشعب مازال يؤمن بالمعبد ومن المعبد يؤسه ونكبه .

لقد أدرك أوديب أن هذا الوباء إنما نتج من المجاعة والفقر لأن معظم الأرض قد صارت من أملاك المعبد وأوقافه فالسييل الوحيد للإنقاذ الشعب منه هو أن يصادر هذه الأملاك ويعيد توزيعها على الشعب ولكنه خشى إن أقدم على ذلك أن يثور الشعب نفسه عليه فبقى برهة يفكر ويقدر .

وفى تلك الفترة العصيبة حضر إليه (تريزياس) . وتريزياس هذا كان كاهناً صالحاً من كهنة المعبد وكان ينكر على الكاهن الأكبر (لوكسياس) سوء أعماله فى اتخاذ الدين ذريعة لتضليل الشعب واستنزاف أمواله ،

فطرده لو كسياس من المعبد وأعلن كفره وحرمانه فعاش فى منفاه خارج طيبة يرقب الأحداث طوال ثلاثين سنة .

فرحب به أوديب إذ طالما سمع عن عداوته للمعبد وعداوة المعبد له وظن أنه سيجد عنده رأى السديد فإذا تريزياس يكشف له الحقيقة التى ظن أوديب أنها فرية اختلقها المعبد ، إذ شرح له كل شئ : فشرح له المكاييد التى دبرها لو كسياس من أولها إلى آخرها بتفاصيلها ودقائقها . فلم يستطع أوديب أن يشك فى صحتها لأن جل هذه التفاصيل قد مرت به فعلا .

وهم أوديب أن يفقأ عينيه من هول هذه الحقيقة لو لم يمنعه تريزياس من ذلك إذ ذكره بأن عينيه ليستا ملكه هو بل ملك الشعب فعليه أن يعصى فيما اعتزمه من مصادرة أموال المعبد وتوزيعها على الشعب لإنقاذه من ذلك الوباء ومن الوضع الفاسد الذى جر إليه .

وأشار على أوديب ، ريثما يتم التدبير لذلك - أن يستجيب لطلب الشعب فيبعث كريون ليستفتى المعبد . فإذا لو كسياس الكاهن الأكبر يقدم بنفسه إلى طيبة ويخطر أوديب بأن الوحى قد أبأ أن سبب الطاعون وجود رجل فى طيبة هو الرجس الذى قتل أباه وتزوج أمه ولا خلاص لطيبة من الوباء إلا بخلاصها من هذا الرجس ، ثم أخذ يساومه ويعرض عليه ألا يعلن هذه الحقيقة للشعب إذا عدل أوديب عما هم به من مصادرة أموال المعبد وسلم تريزياس ليحاكمه المعبد على خيانتة وكيدته . فأهان أوديب وقال له أعلن الحقيقة للشعب فإنى لا أبالى .

ولم تستطع جو كاستا أن تتحمل هول الصدمة فانتحرت شنقا . وأعلن
الروحى فى الشعب فهاج وماج ووقف أوديب أمام محكمة الشعب وليس
معه غير تريزياس . وحى الوطيس بين الكاهنين لو كسياس وتريزياس ،
هذا يلقي التهم على أوديب وهذا يدافع عنه . وحضر الشهود جميعاً :
خادم لايوس القديم والراعى الكورنثى وبوليوب وميروب ملكا كورنث
فأدلى كل واحد منهم بشهادته .

وذهل الشعب مما سمع فطورا يميل مع لو كسياس وطورا يميل مع
تريزياس إلى أن انتهت المحاكمة أخيراً بسقوط لو كسياس وانتصار أوديب
إذ أدرك الجميع أنه معذور فيما وقع منه وأن التبعة كلها على لو كسياس
الذى دبر هذه السلسلة من المكائد .

ونهض أوديب فأعلن أنه لم يعد صالحاً للحكم بعد ما تلوث وتدنس
فليختاروا ملكاً غيره ولكن الشعب ألح عليه ألا يعتزل الحكم وقالوا : لا
نرضى بغيرك بديلاً .

ونفذ أوديب ما اعتزمه فصدورت أموال المعبد . ووزعت الأرض
على الشعب فزالت المجاعة وارتفع الوباء وعاشت طيبة عيشة هنية .
ولكن أوديب ظل حزينا فى القصر تساوره آلام الذكرى حتى ضاق
ذرعاً بذلك فتلسل ذات ليلة من قصره تاركاً طيبة ليهيم على وجهه فى
الأرض وهو يقول إن طيبة بخير ولن تعقم بملك يرعاها خيراً منه .

هذا عرض موجز لمسرحية (مأساة أوديب) ترون منه كيف فسرت
الأسطورة تفسيراً جديداً فنقلتها من مضمون إلى مضمون ومن فلسفة إلى

فلسفة . وسأعود إليها بالحديث لبيان ما ترمز إليه عند الكلام على الرمزية فى المسرحية .

أرأنى قد أطلت الحديث عن الفكرة الأساسية والموضوع وآن لى أن أحدثكم عن غيرهما من عناصر التأليف المسرحى .

رسم الشخصية أو (التشخيص) :

لكى يوفق الكاتب فى رسم شخوصه ينبغى أن يتعرف إليهم واحداً واحداً ويعيش معهم فى ذهنه برهة كافية حتى يقرر أو يكتشف لكل واحد منهم أبعاده الثلاثة : البعد الجسمانى أو الشكلى والبعد الاجتماعى والبعد النفسى فعلى معرفته الدقيقة بهذه الأبعاد الثلاثة يتوقف نجاحه فى رسم شخصياته .

فالبعد الجسمانى هو ما يتعلق بالشخص من حيث بنيتة وشكله الظاهرى أقصير هو أم طويل ، بدين أم نحيف ، قوى البنية أم ضعيف ، سليم الأعضاء أم ذو عاهة من العاهات وهلم جرا لأن لكل صفة من هذه الصفات أثرها فى تكوين الشخصية .

والبعد الاجتماعى هو ما يتعلق بالحيط الذى نشأ الشخص فيه ، والطبقة التى ينتمى إليها ، والعمل الذى يزاوله ودرجة تعليمه وثقافته ، والدين أو المذهب الذى يعتنقه والرحلات التى قام بها والهوايات التى يمارسها فإن لكل ذلك أثراً فى تكوينه .

أما البعد النفسى فهو ما ينتج عن البعدين السالفين من الآثار العميقة الثابتة التى تبلورت على مر الأيام فحددت طباعه وميوله ومزاجه ومميزاته النفسية والخلقية .

- ٧٥ -

وكلما تعمق الكاتب فى التعرف إلى شخوصه كان خليقاً أن يكتب مسرحية جيدة . اقرأ أى مسرحية رديئة وانظر إليها يامعان فستعجب من قلة معرفة كاتبها بشخوصه . واقرأ ما شئت من المسرحيات الجيدة فسروك مقدار ما يعرف كاتبها من التفاصيل والدقائق عن كل شخص من شخوصه .

وليس المقصود أن تذكر هذه التفاصيل فى المسرحية بالتصريح ، بل يكفى أن تكون كامنة هناك فى أطواء النص بحيث يمكن أن يوجد فيه جواب لكل سؤال يعلن لأحد أن يسأله .

- الصراع - Conflict

ويأتى بعد معرفة الكاتب بشخوصه حسن اختياره لها فى الموضوع الذى يعالجه ، والفكرة الأساسية التى يدور عليها ، بحيث تكون هذه الشخوص متباعدة متناقضة ليتولد بينها الصراع الذى لا تنهض مسرحية إلا به ، على أن ينشأ من هذا التناقض تناغم فى النهاية يحقق تلك الوحدة المنشودة فى كل عمل فنى .

ولكى يحتدم الصراع ويستمر إلى النهاية يجب أن تكون بين هذه الشخوص شخصية محورية (pivotal Character) من ذلك الطراز القوى العنيد الذى لا يقنع بإنصاف الحلول . فإما أن يبلغ كل ما يريد أو يتحطم . وغالبا ما يكون التطور فى هذه الشخصية أقل منه فى غيرها من الشخصيات لأنها تكون من البداية (بداية ظهورها فى المسرحية)

- ٧٦ -

قد بلغت أوج كمالها ونضجها أو كادت ، ولا يتعين أن يكون هذا الشخص هو بطل المسرحية . فقد يكون كذلك كما هو الحال فى الحاكم بأمر الله وجحا ، وقد يكون غير البطل مثل ياجو فى مسرحية عطيل .

وهذا الصراع ينبغي أن يكون متدرجا فى الصعود فلا يلحقه ركود أو جمود فى الطريق ، ولا تثب به طفرة ، حتى يبلغ الذروة ويصدق هذا على الصراع الرئيسى الذى يحكم المسرحية كلها من أولها إلى آخرها . كما يصدق على الصراع الفرعى فى كل فصل أو مشهد .

الانتقال التدريجى Transition

والسبيل إلى إيجاد هذا الصراع هو اتباع طريقة الانتقال التدريجى من حال إلى حال جريا فى ذلك على سنة الطبيعة ، فكل شىء فيها يحكمه هذا القانون إذ ليس فيها طفرة أبدا . فكذلك ينبغي على الكاتب المسرحى أن يراعى الخطوات التى يتم بها كل عمل وكل حادث ، وكل حركة نفسية أو فكرية تقع لشخص مسرحيته .

وليس له أن يقول : إن خلاف هذا قد يقع فى الحياة . إذ ينتقل المرء فجأة من حالة إلى حالة . فالواقع أن التدرج لابد أن يكون موجوداً فى هذه الحالة وكل حالة . وإذا كانت الحياة لا تظهر هذا التدرج فإن على الكاتب المسرحى أن يبرزه فى عمله فهذه مهمته .

ولتوضيح هذا سأضرب لكم مثلاً ذلك المشهد الذى قتل فيه شهريار العبد الذى وجده فى مخدع زوجته بدور ثم قتلها هى ، فقد يتم مثل هذا فى الحياة فى لحظة واحدة دون إمهال ودون أى مساجلة أو حوار يفصل بين قتل العبد وقتل الزوجة . ولكن لا ينبغي أن يصنع هذا فى المسرحية انكالا على أن التدرج الطبيعى قد تم فى ذهن شهريار كلمح البرق لأن من وظيفة الكاتب المسرحى أن يظهر ذلك ويبرهن على وجوده .

وقد بالغ بعض الكتاب فحاولوا أن يتدعروا وسائل جديدة لإبراز أفكار شخصهم وخواطرهم حتى يظهر من خلالها التدرج المطلوب كما فعل يوجين ؟ مثلاً فى مسرحيته (الفاصل الغريب) Strange Interlude . غير أن هذه الوسائل لم تنجح نجاح الطريقة البسيطة التى أشرنا إليها وهى التى اتبعها أبسن وغيره من الكتاب الراسخين .

وفى وسع الكاتب المسرحى إذا أراد أن يختبر مقدار توفيقه فى خلق الصراع الصاعد أن يقرأ أصول مسرحيته على صديق له ، ويطلب منه أن يخبره أول ما يشعر بالضيق وقلة الاهتمام . فحينئذ يعلم أن المسرحية قد أعوزها الصراع فى ذلك الموضع .

وإذا ضاق الجمهور بمسرحيته ذرعاً فليس له أن يزعم أنها كانت فوق مستواهم فالحقيقة أن المستنيرين أحرى أن يضيّقوا بها قبل الجمهور الساذج وأسرع إلى الملل حين ينعدم الصراع فى المسرحية . فلا يستهين الكاتب بحكم الجمهور فللرجل العادى أو حتى الأمى بصيرته التى لا تخطئ وهو لا يقل فى تمييز المسرحية الناجحة من غيرها عن أى ناقد متمرس .

الحركة Action

من المتفق عليه أن المسرحية قائمة على الحركة فحيث لا توجد الحركة لا توجد مسرحية ، ولكن المقصود بالحركة يحتاج إلى الإيضاح . فليس المقصود بها الحركة الجسمانية فهذه قد تكون فى كثير من الأحيان خالية من أى قوة درامية ، بينما قد يكون السكون التام فى بعض الأحيان أبض بالحياة الدرامية وأشد جيشاناً واحتداماً من أى حركة ظاهرية .

وإنما المراد بالحركة فى المسرحية هو أن يستمر الخط المسرحى متحركاً لا يقف لحظة واحدة . إنها تلك التى تحدث الحركة المتجددة فى ذهن المشاهد فلا يفتر ولا يركد أبداً . ويكون ذلك بالوقوف الساكنة كما يكون بالحركة الظاهرة ، ويكون بالجملة الصامتة كما يكون بالجملة الناطقة . كل جملة تدفع الحدث خطوة إلى الأمام تسمى حركة ، وكل سكتة وكل إشارة وكل شئء يؤدى إلى هذه النتيجة يسمى حركة ، ومالا يؤدى إلى هذه النتيجة لا يسمى حركة وإن كان مليشاً بالجرى والقفز .

وقد يدور الحوار الطويل بين اثنين لا يرحان مقعدهما ويكاد أن يكونا ساكنين تماماً ، ويكون مع ذلك نابضاً بالحركة الدرامية المتجددة وتجذون مثلاً لذلك فى الحوار الطويل الذى دار بين جحا والحاكم

— ٧٩ —

الأجنبي في السجن . إذ أراد الحاكم أن يستميله إليه ليعمل على تهدئة
الثورة التي انطلقت في البلاد فأشبعه جحا تنكيتاً وسخرية .

الحاكم : صباح الخير يا قاضي القضاة .

جحا : (يشير إلى القيد في يديه) أنا يا سيدى شيخ المفسدين فى
الأرض (يأمر بفك القيد عنه) .

الحاكم : إنى جئت لزيارتك يا قاضي القضاة ، وما جئت لتعنيفك .

جحا : مرحبا بك يا سيدى . لقد زدت هذا السرداب نورا على
نور .

الحاكم : كم يعز علىّ ذكاؤك هذا يا جحا أن تصرفه فيما يضرك لا
فيما ينفعك !

جحا : يا سيدى لا تضيع نصحك سدى . لقد بلوت تصاريف
الأيام سبعين عاما فوجدت أنى ما أحببت شيئا إلا ضررنى
وما كرهت شيئا إلا نفعنى . حكمة لله بالغة .

الحاكم : كيف ذلك ؟

جحا : أحببت الوعظ فجاءنى منه العزل ، وكرهت العزل فأتانى
منه الفرج إذ عرفت بعده حقيقة نفسى ، وأحببت الفلاحة
فجاءنى الجراد وكرهت الجراد فكان سبباً لتوليتى قاضى
القضاة ، وأحببت هذا المنصب فأفسد علىّ امرأتى حتى
جعلها لا تطاق . هل أزيدك ؟

الحاكم : نعم .

جحا : وكرهت حال امرأتى هذه فدفعنى ذلك إلى خير مسعى

قمت به حياتى مسعى لنزع المسمار من الدار ، ثم
كرهت حبسى فإذا الشعب كله يلهج بذكرى ويهتف
بأمرى ويسعى جاهدا خلاصى من السجن الصغير
وخلاصه هو من السجن الكبير .

الحاكم : والموت يا قاضى القضاة ألا تكرهه ؟
جحا : بل أكرهه كرهاً شديداً ، وهذا ما يجعلنى أرجو أن يقترن
أجلى بأجل احتلالكم ، فقد ولدت أنا وهو فى بطن عام
واحد .

وقد تنبض الحركة الدرامية فى النجوى التى يتمم بها أحد الشخص
وحده ، انظروا إلى هذه النجوى التى تقوها شهر زاد فى مطلع الفصل
الثانى وهى واقفة قلب خنجراً كبيراً يلعب نصله فى يدها كأنها تحدث
نفسها بالانتحار .

شهر زاد : أيها الباب القائم بين الحياة وبين الموت ها هى ذى يدي
على مقرعتك . يد عذراء فى ميعة الصبا وبواكير
الشباب . أعلم إنما هى قرعة واحدة وتفتح لى على
مصراعيك . ولكن رهبتك تشل يدي عن قرعك ، وما
من شلل . عجباً لك أيها الباب الرهيب كيف يعجز
أقوى الأقوياء أن يوصدك ثم لا يعجز أضعف الضعفاء
أن يفتحك ؟ كيف لا يملك أحد قفلك ويملك كل
واحد مفتاحك ؟ أرحمة بالضعيف إذا ما ضافت به
الحياة . فالتمس سبيله إلى الخلاص ؟ إذن فعلام يا إلهى
حرمت هذا السبيل فى شرائعك ؟

الحوار :

يعتبر الحوار من أهم عناصر التأليف المسرحي . فهو الذى يوضح الفكرة الأساسية ويقيم برهانها ، ويجلو الشخصيات ويفصح عنها ويحمل عبء الصراع الصاعد حتى النهاية ، وهذه المهمة يجب أن يضطلع بها الحوار وحده ولا يعتمد فى شيء من ذلك على الشروح والتعليمات التى يضعها الكاتب بين الأقواس فهذه إنما توضع لمساعدة المخرج على فهم ما يريد الكاتب مما هو مستكن داخل الحوار لا مما هو خارجه .

ولكى يجود الحوار لابد من أمرين : الأول : وجود الصراع الصاعد فهو الذى يكسبه القوة والحياة . والثانى : معرفة الكاتب بشخصه معرفة عميقة شاملة لأن الحوار ينبغى أن ينبع من هذه الشخصيات فيحمل خصائصها فى ثناياه فكل جملة يقولها الشخص ينبغى أن تفصح عما هو الآن وتومئ إلى ما سيكون هو المستقبل .

ودونكم مثلاً من المسرحية سر شهر زاد لتزوا كيف تكشف كل جملة فى الحوار عن شخصية قائلها .

هذا الملك شهر يار عند رفع الستار فى الفصل الأول يدخل متسللاً إلى مخدع زوجته وليس فيه أحد . فيعمد إلى ثياب الملكة يشمها فى لهف والتياح :

شهر يار : يالى من هذا العبير ! آه لو أمكن تقطيره كما يقطر ماء الورد والياسمين . إذن لضمخت به جسدى ولشربت منه حتى تتروى هذه الكبد الحرى ويرد هذا الغليل .

(يتوجه ناحية السرير فيجبل يده بطنا وظهرا على متن الفراش من أسفله إلى أعلاه حتى إذا بلغ الوسائد ضمها بشدة وأهوى عليها يوسعها لثما) بدور ! بدور ! يا منية النفس يا جنة العين يا جحيم الفؤاد !
تقطير العبير الموجود في ثياب الملكة .. تضيخ الجسد به .. ارتواء الكبد الحرى .. جنة العين . جحيم الفؤاد .. أرأيتم كيف تفصح كل كلمة من هذه الكلمات عن حالة الحرمان التي يعانها شهر يار مع وجود ما يشتهي بين يديه .

وهذا حوار يدور بينه وبين الملكة في نفس الفصل :
شهر يار : آه : (يسحب يديه من حول خصرها ثم يحل بهما يديها عن عنقه) الحر شديد اليوم !
بدور : شيئا ما .
شهر يار : شيئا ما ! جهنم ! ألا ترين العرق يتصبب من جبینى ؟
(يمسح وجهه بمنديله) ومن جبینك أيضاً ؟
بدور : صدقت .. الحر شديد اليوم .
شهر يار : ماذا تعنين بقولك هذا ؟
بدور : لا أعنى شيئاً .. هذا قولك أنت .
شهر يار : بل تسخرين منى يا امرأة !
بدور : ماذا يحملنى على ذلك يا رجل ؟
شهر يار : (يبدو عليه التضعع) يا رجل ! يا رجل !
بدور : دعوتنى يا امرأة فدعوتك يا رجل .
شهر يار : يا رجل !

بدور : حنانيك يا مولاي واللّه ما قصدت اى سوء ولكنك
اغضبتنى واتهمتنى بما لم يكن منى فخانى لسانى .

انظروا إلى هذا الحوار كيف تفصح كل كلمة يقولها شهر يار عن
الريبة التى تساوره فى كل كلمة تقولها الملكة توهمها منه أنها تشير إلى
علته مع علمه بسداجتها وبقينه بأنها لا تقصد شيئاً مما توهم .
وكيف تفصح كل كلمة تقولها الملكة عن براءتها وجهلها بحقيقة
الأزمة التى يعانىها الملك ، بالرغم من وجود إدراك لا شعورى غامض
عندها لتلك الحقيقة ينم عليه ما سبق به لسانها فى قولها « يا رجل »
دون أن تعى ما ينطوى عليه هذا القول .
إنه فى واد وهى فى واد آخر ، وإن كانا قد يلتقيان فى سراديب
اللاشعور فلا يعرف أحدهما وجه الآخر .

ثم تأملوا قول شهريار وهو يصف شدة الحر : « جهنم » !
فهذه الكلمة تحمل كل معانى العذاب الذى يكابده فى أعماق نفسه .
وتأملوا قوله : « ومن جبينك أيضاً » كيف يعبر عن جهاده المستميت
ليدراً عن نفسه ما عسى أن يوجه إليه من تهمة بالعجز الذى يحرص كل
الحرص على إخفائه كأنه يقول لها : إياك أن تظنى أن للعرق الذى تصب
من جبينى سبباً آخر غير هذا الحر الشديد بدليل أن العرق قد تصب من
جبينك أيضاً .

وانظروا إلى قولها : « لا أعنى شيئاً . . هذا قولك أنت » فهى تقصد
ألا حق له فى الغضب حين قالت له . « صدقت . . الحر شديد اليوم »

لأنه هو الذى قال هذا القول قبلها . أما شهريار فقد فهم من قولها هذا معنى آخر يمس تلك العقدة التى فى نفسه كأنها تريد أن تقول : لا أعنى ما قلت ولا أرى الحر شديداً اليوم ، ولكنك أنت الذى تزعم ذلك . ومن ثم احتد عليها واتهمها بأنها تسخر منه . وفى موضع آخر من الفصل نفسه يدور هذا الحوار :

بدور : شهر يار قد غفرت لك كل ما مضى واعتبرته كأن لم يكن . خذنى بين ذراعيك الآن واعتبرنى جارية جديدة تجلى عليك .

شهر يار : بل أنت حبيبتى الأولى . . حبيبتى من قديم .
بدور : كلا يا مولاي . . اعفنى بالله عليك من هذه الصفة صفة القدم فإنى أمقتها من كل قلبى .
شهر يار : فيم يا حبيبتى إنك كاخمر التى تجود وتغلو بتقادم السنين .

بدور : يا ليتك تنظر إلى النساء ، كما تنظر إلى الخمر .
شهر يار : أنت عندى وحدك الخمر من دون النساء جميعا . آه يا ليتنى أستطيع أن أشربك .
بدور : الكأس يا حبيبتى بين يديك .

شهر يار : بل أشتهى يا بدور لو أفرغتك فى جوفى فلا يبقى
بدور : منك شيء !

إذن والله لا أبالى . فيانى ساعيش فيه وأجرى فى عروقك !

ألا ترون إلى كلمات شهر يار هذه كيف تخفى فى طياتها رغبته الدفينة فى التخلص منها وكيف تومى بذلك إلى ما سيكون منه فى المستقبل وإلى كلمات بدور كيف تنبى عن حبها له وغيرها عليه واستعدادها للقيام بأى تضحية فى سبيل الظفر بوصاله ، وكيف تمقت صفة القدم لأنها بسداجتها تظنها أصل المشكلة وسبب انصراف زوجها عنها .

ثم انظروا كيف تصور كلماتهما معا ذلك الجو المادى.. جو الحياة التى كان يحياها شهر يار فى قصره بين الخمر والنساء والجوارى من كل لون .

وفى نهاية الفصل حين وجد العبد عندها فقتله ثم أراد أن يقتلها يدور

هذا الحوار :

بدور : سل القهرمان أولا فهو الذى اشترى لى هذا العبد .

شهر يار : القهرمان إذن قوادك .

بدور : لا ، لا تمسه بسوء . القهرمان لا ذنب له . أنا أمرته

فاشتراه لى وأنا التى قدته بنفسى إلى هذا المخدع

شهر يار : هاه اعترفت الآن .

بدور : مهلك ! فتش يا سيدى ، العبد الذى قتلتته

فستجده .. ستجده ..

شهر يار : ماذا ؟ خصيا ! مجبوا ! طواشيا ! أهذا ما تحجلين من

ذكره ؟

بدور : نعم . نعم

شهر يار : ويلك كيف عرفت ذلك ؟ !
 بدور : ارحمنى يا شهر يار .. لا تقتلنى .. ارحم شبابى !
 شهر يار : (فى حقد) شبابك !
 بدور : أجل يا مولاي ارحم شبابى الغض !
 شهر يار : الغض .. الغض (يحمل عليها بسيفه فيقتلها) .

انظروا إلى قولها متلعثمة : « فستجده .. ستجده .. » كم تدل هذه الجملة على ما طبعت عليه بدور من الحياء والخفر ، وقارنوه برد شهر يار البالغ فى الوقاحة كيف يدل ذلك على أزمتة النفسية العاتية فهو يعلم أنها بريئة ومع ذلك يوجه إليها ذلك القول البديء الوقح كأنه يقول فى قرارة نفسه : إذا كنت بهذا الحياء والخفر فلم تطالبينى بذلك الذى ليس عندى حتى اضطررتنى إلى ارتكاب هذه الجريمة .

وتأملوا قوله : ويلك ! كيف عرفت ذلك ؟ كيف يفصح عن أنه - وهو العليم بطهرها وبراءتها - يتحرق شوقا إلى أن يجد أى فرصة تمكنه من اتهامها بالمكروه حتى يتخذ ذريعة للإقدام على قتلها ، وخشية أن تدركه الرقة فيعدل عن القرار الذى اتخذ فى التخلص منها ، ورغبة فى أن يخفى حتى عن نفسه السبب الحقيقى الذى يدفعه إلى ارتكاب هذه الجريمة .

ثم انظروا إلى قولها : ارحم شبابى .. ارحم شبابى الغض . كيف يحمل من جهة كل معانى الحرمان الذى كابדתه من جراء انصرافه عنها وكيف يدل من جهة أخرى على مبلغ استسلامها له كأنها تقول له : لا

بأس أن تقتلني إذا شئت ولكن أمهلني حتى أستمع قليلا بشبابي . وهى لا تعلم أن هذه الكلمة تمس علته فى الصميم فكانت هى القضية إذ قتلها حينئذ وهو يردد : الغض .. الغض .. بكل ما تحمل هذه الكلمة من قسوة ومرارة وحرمان من هذا الشيء الذى يشتهيهِ وهو بين يديه . من هذه الأمثلة ترون أن هناك تيارات نفسية خفية تجرى تحت سطح الحوار كثيراً ما تدل على معانٍ تناقض تماماً المعانى الصريحة التى يحملها السطح .

وإذا أردتم أن تحكموا على حوار ما ؛ فاجتثوا عن هذه التيار النفسى فيه فإن وجدتموه مطردا فيه متسلسلا فاعلموا أنه حوار ممتاز لأنه يعبر عن ظاهِر الشخصية ويفصح عن باطنها فى وقت واحد . أما إذا لم تجدوا تحت السطح شيئا فتلك علامة الحوار المصنوع الذى قصاره إن كان جيدا أن يعبر عن الشخصية من الظاهر فقط . وهذا فى رأى أحسن معيار للتمييز بين الدراما والميلودراما ، وبين الكوميديّة والمهزلة (الفارس) .

واقعية الحوار

ينبغي أن يكون الحوار واقعياً ينبع من الشخصية ذاتها فيكشف عنها ويحمل خصائصها كما تقدم . ونريد أن نبه إلى المقصود بالحوار الواقعي فليس المراد أن يراعى الكاتب مقدرة الشخصية على التعبير عن ذات نفسها في واقع حياتها كما ذهب إلى ذلك الكاتب جالزورثي والتزمه في مسرحياته جرياً على المذهب الطبيعي الذي انتشر في ذلك العهد . فيمقتضى هذا المذهب لا ينبغي لشخصية أن تعبر عن نفسها التعبير الواضح إلا إذا كان في مقدورها أن تفعل ذلك في واقع حياتها . وبعبارة أخرى على الكاتب المسرحي عند القائلين بها المذهب ، ألا يجعل الشخصية تفصح عن ذاتها أكثر مما تستطيعه في واقع الحياة . وهذا خطأ لأن من صميم وظيفة الكاتب المسرحي أن يعاون شخوصه بحيث يجعلهم قادرين على الإفصاح عن ذواتهم بقطع النظر عن قدرتهم أو عدم قدرتهم على ذلك في واقع الحياة .

وإنما المراد بواقعية الحوار أن يلتزم الكاتب حدود الشخصية المرسومة فلا ينطقها إلا بما يتلاءم معها سواء أوتيت أو لم تؤت القدرة على الإفصاح عن ذاتها . وفي هذا يؤخذ على برناردشو في كثير من مسرحياته . إذ ينطق بعض شخوصه بما لا يمكن أن ينطقوا به حتى على فرض أنهم قادرون على التعبير عن ذلك .

فبرناردشو في هذه الناحية يقع من جالزورثي على طرفي نقيض ، فبينما ترى الثاني يلتزم في شخوصه حدود قدرتهم — في واقع الحياة

على التعبير عن ذواتهم ولا يتجاوزها ، نرى الأول فى بعض الأحيان لا يلتزم فى حوار شخصه حتى مطابقة كلامهم لواقع حياتهم كما رسمها هو بنفسه ، فينطقهم بآراء وأفكار ومشاعر لا يمكن أن تصدر منهم ، بل من الكاتب نفسه .

وفى حدود هذا التعريف للحوار الواقعى يتفاوت الكتاب فى مدى قدرتهم على جعل حوارهم طبيعياً أو قريباً من الحوار الطبيعى كما يجرى فى الحياة ويعتبر أنطوان تشيكراف من أبرع الكتاب فى ذلك ففى مسرحياته نرى الشخصيات تبين إبانة تامة عن ذات نفوسها ولكن دون أن تعلق نغماتها على مستوى الكلام العادى المألوف . ويمتاز هذا الكاتب الروسى أيضاً ببراعته فى خلق الجو من خلال الحوار ويظهر ذلك جلياً حينما يعرض المجموعات وهى تتحاور فيما بينها فنجد أنه يخلق جواً عاماً يغمر المجموعة كلها ولكنه فى الوقت نفسه يحتفظ لكل فرد منها بجوه النفسى الخاص .

الفصحى والعامية

أشرنا فى محاضرة سابقة إلى أن من الصعوبات التى تواجه الكاتب المسرحى أنه مطالب بأن يكتب بلغة أدبية مصقولة وفى نفس الوقت واقعية تتراكم مع المستويات المختلفة لشخص مسرحيته .

فما هو المقصود بالواقعية هنا : الواقعية الزمنية أم الواقعية الفنية ؟ ألتزم اللغة التى يتكلم بها أولئك الشخصيات فى حياتهم اليومية فنستعمل العامية المصرية مثلاً فى حوار المسرحية المصرية العصرية ، والعامية

العراقية فى حوار المسرحية العراقية العصرية ؟ أم نكتب بلغة فصيحة تصور الخصائص النفسية والاجتماعية لكل شخصية وتفصح عن سلوكها ومنطقها ونظرتها إلى الحياة كما هى الحياة ، دون تقييد بنفس اللغة ونفس الكلمات التى تتحاور بها فى حياتها اليومية ؟

بالرأى الأول يقول دعاة الكتابة بالعامية فى المسرحيات العصرية وحجتهم فى ذلك أن الواقعية لا تتحقق فى زعمهم إلا إذا أنطقنا الأشخاص بنفس الكلام الذى يتحاورون به فى الحياة فلا يجوز أن ننطق الفلاح المصرى مثلاً غير اللغة التى يتفاهم بها مع بنى جنسه فى الريف . وهذا مع الأسف هو الرأى الشائع عندنا اليوم والمعمول به فى الأوساط المسرحية . وأقول مع الأسف لأن فهم الواقعية على هذه الصورة فهم سطحي ساذج فمن المعلوم المتفق عليه أن الفن فى صميمه ليس تسجيلاً فوتوغرافياً أو فوتوغرافياً للحياة . وإنما هو تصوير لها وتعبير عنها وإن شئت فقل إنه نقد لها . والمسرح لا يخرج عن كونه لوناً من ألوانه .

لم يقل أحد قط إن الزمن الذى يستغرقه عرض مسرحية عطيل مثلاً على خشبة المسرح لا يمكن أن يتسع لحوادثها كما هى فى الواقع ولم يقل أحد أن عطيلاً هذا وسائر الشخصوس الذين فى المسرحية كانوا من أهل البندقية وهى مدينة إيطالية فكيف أنطقهم شكسبير باللغة الإنجليزية بل لم يخطر ببال أحد منا ونحن نشاهدها على مسرحنا العربى فى أن يسأل : هل كل هؤلاء يعرفون اللغة العربية ؟

فلماذا يقال إذن : كيف ينطق الفلاح المصرى باللغة العربية الفصيحة؟
 إننا لا ننكر أن المسرحية العصرية إذا كتبت باللغة الفصيحة لن تلقى من
 جمهورنا اليوم القبول الذى تلقاه لو كانت بالعامية ولن تنجح نجاحها .
 ولكن مرجع ذلك إلى العادة التى اتبعتها الفرق المسرحية المحلية عندنا منذ
 وقت طويل فطبع عليها الذوق العام لجمهور المتفرجين . ولو جرت
 العادة بغير ذلك لما أحس جمهورنا اليوم بأى نبو أو غرابة فى مشاهدة
 المسرحيات العصرية ممثلة باللغة العربية الفصيحة وإذن لتكون عندنا
 رصيذاً يعتد به من تراث الأدب المسرحى لا يقتصر على المسرحيات
 التاريخية فحسب .

قد يقول قائل إنه ما دامت العادة قد جرت باستعمال اللغة العامية
 فى المسرحيات العصرية كما تقول فليس لنا إلا أن نحجرى عليها .
 والرد على هذا أننا اليوم فى مطلع نهضة قومية عربية لم يسبق لها
 مثيل من قرون مضت ، وقد اقتضت منا هذه النهضة أن نعيد النظر فى
 كل وجه من وجوه حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية
 والفنية لنصلح ما فيها من أخطاء ، ونسد ما فيها من نقص ، ونقوم ما
 فيها من اعوجاج حتى نبنيها على أسس سليمة تهئ لنا المستقبل العظيم
 الذى ننشده .

فمن الواجب علينا أن نسعى فى تغيير هذه العادة الفنية التى جرينا
 عليها فى عهود مضت إلى عادة أصلح وأفضل ، كما نسعى فى تغيير
 عاداتنا لكثيرة فى مختلف ميادين الحياة إلى عادات أصلح وأفضل . إنه
 إن جاز لنا استبقاؤها فيما مضى فلا يجوز لنا اليوم ونحن نتطلع إلى محو

الأمية عن شعبنا المصرى ونشر الثقافة والتعليم على نطاق واسع فضلاً على أننا نرنو إلى عهد جديد تتحقق فيه وحدة الشعوب العربية كلها من الخليج إلى المحيط

وقد يظن بعض الناس أن هذه المشكلة خاصة بالمسرحية فى أدبنا العربى وهذا غير صحيح فهى قائمة بالنسبة للآداب الأخرى كذلك وقد أثارها أساتذة هذا الفن عندهم وبحوثها وقالوا فيها آراء لا تخرج فى جملتها عما ذهبنا إليه من إيثار اللغة الفصحى على اللغة العامية .

وحيث إن هذا رأى الخطأ هو الشائع عندنا حتى فى الأوساط المستنيرة وأنصار العامية كثيرون بين مخلصين يدافعون عنها عن عقيدة واقتناع بصواب رأيهم ومغرضين ينافحون عنها لحاجة فى نفس يعقوب ، وحيث إن كثيراً من الذين يزاولون النقد عندنا يقولون بهذا الرأى ويوهمون القراء أنهم يجرون فى ذلك على أحدث الآراء النقدية فى الكتب الأجنبية فاسمحوا لى أن أنقل لكم بعض أقوال أساتذة هذا الفن مترجمة بالنص .

هذا هيرمون أولد Hermon Ould يقول فى صفحة ٧٧ من كتابه (فن المسرحية) : « الحوار فى المسرحية الجديدة غير واقعى » (يقصد كما يفهم من سياق حديثه : غير مطابق للواقع) نعم قد تكون فقرات منه أو جمل منقولة تماماً من الكلام الدارج فى الحياة اليومية أما فى الجملة وعلى وجه العموم فالزعم بأن الحوار الموجود فى المسرحيات الجيدة التى تسمى واقعية صورة منقولة من الكلام الطبيعى لا يقل فى الخطأ عما لو زعمنا أن الصورة المشهورة (يوم فى سباق دربى) التى رسمها الرسام

الشهير Frith هى نقل طبق الأصل من منظر فى مباراة سباق بابسوم داونز . الاختيار فى الفن هو كل شىء فالكلام المنقول نقلاً فوتوغرافياً ليس من الحوار فى شىء .

ثم قال : « إن مهمة الكاتب المسرحى أن يخلق طرازاً من الكلام يجمع بين الدلالة الواعية ومشاهدة الواقع . فإذا كتب مسرحية عن الحياة العصرية فسيستعمل لا شك أنماطاً من الكلام الدارج ، محولة سراً كسر الكمياء القديمة معروف له وحده إلى قطعة من الأدب لا مجرد تقرير . ثم استطرد قائلاً : « إن من أساتذة الحوار فى العصر الحديث برناردشو وجالزورثى وسومرست موم يتبعون أسلوباً خاصاً لا يعكس مطلقاً الكلام الدارج الذى نسمعه من الناس حولنا » .

وهذا ديسمون ماكارثى Desmon Mac Carthy يقول فى صفحة ٤٤ من كتابه (Theatre) : « اللغة العامية لغة اكليشيية Stereotyped ، وهى تطمس الشخصية وتخفيها أكثر مما تفصح عنها وتبيدها » .

إن أصلح أداة لرسم الشخصية وتوضيح ملامحها النفسية وتمييزها عن غيرها من الشخصيات هى اللغة المحايدة أى اللغة التى ليست لها صبغة محلية صارخة تطمس تلك الملامح وتقضى على الخصائص وتطبعها مع غيرها من الشخصيات على غرار واحد .

واللغة الفصيحة عندنا هى اللغة المحايدة التى يستطيع الكاتب القدير أن يتصرف فيها ويخلق منها ألواناً متنوعة من التعبير تناسب الشخصيات المتنوعة التى يرسمها . إن مثل هذه اللغة الفصيحة المحايدة كمثل الماء الصافى الذى يمكن تلوينه بأى لون تريد . فيظهر هذا اللون على حقيقته .

أما اللغة العامية فمثلها كمثل الماء الملون لا يمكن أن يظهر أى لون جديد على حقيقته . وهذا المعنى هو الذى قصده ديسمون ماكارثى فى القول السابق الذى نقلناه عنه .

والخلاصة أن الكاتب المسرحى يستطيع باللغة الفصيحة السهلة أن يصور ما يشاء من الأجواء المختلفة ، بأن ينفخ فيها الروح المحلية الخاصة بشخص مسرحيته . فالروح المصرية مثلاً يمكن أن تترقق فى اللغة الفصيحة كما يترقق الماء فى كأس من البلور .

ومن نافلة القول أن أشير إلى أن اللغة العامية ليست لغة جامعة حتى فى داخل القطر الواحد ، ففي القطر المصرى مثلاً لهجات عامية متنوعة ، وكذلك الحال فى الأقطار العربية الأخرى . فباليت شعرى أى هذه اللهجات نتخذها لغة لمسرحيتنا العصرية ؟

أجل إنه لا شك فيه أن اللغة كائن حى ، وأن اللغة الدارجة لطول تداولها على الأيام قد اكتسبت من المرونة والحرية ورشاقة التعبير الحافل بالظلال والألوان . ما لم تكتسبه اللغة الفصيحة غير المتداولة ، ولكن السبيل ليس استعمال هذه اللغة الدارجة نفسها فى أدبنا المسرحى ولا فى أدبنا القصصى على العموم ، وإنما السبيل هو أن نقتبس أسلوبها ومنطقها وبلاغتها من حيث التقديم والتأخير وسائر خصائصها الحية المرنة ، وننقلها إلى لغة كتابتنا الفصيحة الجارية على قواعد الإعراب . وبذلك تتكون عندنا لغة جديدة تعكس واقعنا ولا تنفصل عن الفصحى . لغة حية متطورة تحفل بالألوان والظلال الخاصة بكل بلد عربى على

حدة، ولكنها مفهومة لجميع الشعوب العربية لقراء العربية فى كل مكان.

ولعل أصدق مثال لذلك فى القديم ما نجده فى شعر البهاء زهير من روح الدارجة المصرية فى عصره ، ومع ذلك فهو فصيح جار على قواعد الإعراب .

ومن قاموا بهذه المحاولة فى العصر الحديث من كتاب القصة المرحوم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى . ثم الأستاذ نجيب محفوظ على نطاق أوسع وأرحب ، ومن كتاب المسرحية الأستاذان توفيق الحكيم ومحمود تيمور . وقد جريت أنا أيضاً على هذا المنهج . هاكم مثلاً من مسمار حجا فى الفصل الأخير حيث كانت الماشطة أم الخير تقوم بتزيين ميمونة بنت حجا للزفاف .

أم الغصن : من أول الظهر فى شعرها هذا يا أم الخير ؟
الماشطة : كان عليكم أن تدعوني من أول النهار كما يفعل الناس لا عند أذان الظهر .

أم الغصن : يا سوء بختنا . بعد العز والبحجة أصبحنا وليس عندنا حتى خادمة . كل هذا من .. الحمد لله على كل حال (تخرج) .

الماشطة : (لميمونة) ارضى بما قسمه الله لك يا بنتى فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم خدينى أنا مثلاً أمامك . زوجنى والذى لغير من أحبه وأعشقه فبكيت وشكيت وعملت ما لا يعمل ثم استسلمت ومررت

الأيام فإذا زوجى من أكمل الرجال وأبر الأزواج
وإذا قريبي الذى كنت أهواه مزواج مطلق لا
يستقر على واحدة ولا تنتهى قضاياه معهن فى
المحاكم .

ميمونة : بس لو أنها صبرت حتى يخرج والدى من الحبس !
الماشطة : الخير فيما اختاره الله يا بنتى ، والزواج قسمة
ونصيب . ابتسمى وابتهجى . فالبلاد كلها اليوم
مبتهجة والناس كلهم فى فرح .

(تكمل تصفير شعرها) أربنى الآن : يا حلاوة ! يا
ملك ! حقا هذا جمال لا يصلح لغير قصور السلاطين !

ميمونة : أنت أيضاً مع أمى على !
الماشطة : حاش لله يا بنتى . أنا معك عليها وعلى أبيها وأبى أبيها !

وقد خطوت فى هذا السبيل خطوة أوسع من هذه فى مسرحيتى
(الدنيا فوضى) انظروا إلى هذا الحوار فى الفصل الأول ونحن الآن فى
نادى المرأة الجديدة الذى أسسته سونيا وقد حضر ابن عمها أحمد الذى
كان خطيباً لها ففسخت خطبته ، ليرى ماذا تصنع سونيا فلما حضرت
هى والدكتورة غندورة اختبأ وراء الستارة ليراها من حيث لا تراه ،
متواطئاً فى ذلك مع بيومى فراش النادى .

سونيا : انتظر يا بيومى .. ماذا تشربين يا دكتورة ؟ قهوة ؟
شاي ؟

- غندورة : لا لا أشرب القهوة أو الشاي بعد العصر .
- سونيا : غازوزة مثلجة ؟
- غندورة : لا مانع .
- سونيا : واعملى لى أنا قهوة يا بيومى .
- بيومى : سكر ؟
- سونيا : ع الريحة .
- بيومى : فيم يا ستى كفى الله الشر ؟ السكر موجود والله الحمد سأعملها لك بسكر مضبوط كالعادة .
- سونيا : قلت لك ع الريحة : ومن اليوم قهوتى ع الريحة أفهمت ؟
- (لحظ بيومى اهتزاز الستارة ويلمح وجه أحمد فيتنحنح ويرتبك)
- سونيا : ماذا بك ؟ ماذا تنظر خلفى ؟
- بيومى : لا شىء يا ستى .
- سونيا : لست على بعضك . كنت تتطلع خلفى وتتنح !
- بيومى : (يعضى فى تنحنحه) القهوة التى ع الريحة .
- سونيا : ما بالها ؟
- بيومى : شرخت فى حلقى .
- سونيا : أين شربتها ؟
- بيومى : لا يا ستى ما شربتها لكنى سأعملها لك فوجدت طعمها المر فى حلقى .
- (فن المسرحية)

- غندورة : نكتة ظريفة .
- بيومى : أنت أظرف .
- سونيا : (تنهره) كفاية يا عم بيومى . . رح لشغلك .
- بيومى : طيب يا ستى (يتطلع نحو الستارة) .
- سونيا : الله ! ماذا تنتظر ؟
- بيومى : (يتنحج) بس لو تعطينى الدكتوراة دواء خلقي !
- سونيا : يا مغفل .. هذه ليست دكتوراة فى الطب .
- بيومى : ها .. مولدة . والله لو تتكرم بتوليد . . .
- سونيا : بتوليد من يا وقح ؟ بتوليدك أنت ؟
- بيومى : حاش لله يا ستى : الحمد لله نحن الرجال لا نجبل ولا نلد . إنما أقصد امرأتى أم عبد المولى . . هذا شهرها .
- عقبى لك .
- سونيا : امش يا وقح !

ألا ترون كيف تترقق روح الدارجة المصرية فى هذا الحوار . وأحب أن أعترف هنا بأننا لم نبلغ الكمال بعد فى هذه المحاولات . ولكننا إذا مضينا فى هذا السبيل فسنبلغه لا محالة فى المستقبل القريب ، ويومئذ نتخلص شيئاً فشيئاً من مشكلة الازدواج اللغوى التى نعانىها اليوم .

البناء أو التخطيط

يأتى دور التخطيط المسرحى فى المراحل الأخيرة من الاستعداد لكتابة المسرحية وهو ما يتصل بالهندسة الشكلية لبناء المسرحية من حيث تقسيمها إلى فصول ومشاهد .

وتوجد أشكال كثيرة فقد تكون المسرحية فى ثلاثة فصول أو أربعة مفردة أى دون أن ينزل الستار فى خلال الفصل الواحد ، وهذا هو الشائع اليوم حيث يكون الأول لإثارة الاهتمام بالموضوع والثانى للوصول بالمشكلة إلى الذروة والثالث لتجميع ما تناثر من الخيوط ووصل بعضها ببعض تمهيداً لحل العقدة الكبرى عند الختام .

وقد تحتوى هذه الفصول أو بعضها على أكثر من منظر . وقد تبنى المسرحية على مناظر متعددة مثل مسرحية المراعى الخضراء Green pastures للكاتب الأمريكى Marc connelly فهى تحتوى على ثمانية عشر منظرًا وهذا فى الغالب حين يكون الموضوع تاريخياً متسلسلاً .

وقد اتفق لى مثل هذا فى مسرحية (إله إسرائيل) التى تعالج المشكلة اليهودية من أقدم عصورها حتى اليوم فهى تحتوى على بضعة عشر منظرًا مقسمة إلى ثلاثة أجزاء : الأول : فى عهد موسى عليه السلام والثانى : فى عهد المسيح عليه السلام والثالث : فى العصر الحاضر .

والعبرة على كل حال بما يقتضيه الموضوع فى ذاته فهو الذى ينبغى أن يحدد الشكل الملائم للمسرحية فعلى الكاتب المسرحى أن يستوحى الشكل من موضوعه مستهدياً فى ذلك كله بروح التناسب والتناغم .

نقطة الهجوم :

ومن أهم الأغراض التي تقصد من البناء والتخطيط تيسير حكاية القصة واختيار نقطة الهجوم . فالكاتب المسرحي حين يدير الحوار بين شخصيه في موقف بعد موقف إنما يحكى فى الواقع فصلا بعد فصل من قصة : فترى أحداث القصة تتقدم خطوة بعد خطوة وتفتح صفحة بعد صفحة من خلال الحوار .

وهذا يتطلب براعة خاصة لدى الكاتب المسرحي غير مطلوبة لدى الكاتب القصصى ؛ فالكاتب القصة يتمتع بحرية أوسع إذ يستطيع أن ينتقل من مكان إلى مكان ويثب من زمن إلى زمن قبله أو بعده حسبما يريد وليس كذلك كاتب المسرحية فهو مطالب بأن يحكى كل قصته فى زمن لا يتجاوز ساعتين أو ساعتين ونصفاً على الأكثر وأن يحكيها كلها فى الزمن الحاضر كما أنه مقيد بالمكان الذى تجرى فيه الحوادث لا يستطيع أن ينتقل منه إلى مكان آخر إلا بعد أن يسدل الستار على الفصل لبدأ الفصل الذى يليه . أى أنه مطالب بأن يحشد كل ما يريد أن يحكيه من أحداث قصته فى هذا الحيز الضيق من المكان والزمان بحيث يستوعب مع ذلك جميع أقطار الحياة التى يصفها بكل أبعادها وأغوارها .

ومن ثم يحتاج كاتب المسرحية إلى حذق خاص لفن حكاية القصة يستطيع به أن يتحيز نقطة البدء أو نقطة الهجوم كما يسمونها بحيث يختصر الطريق إلى لب الموضوع دون أن يفقد الجمهور التشويق والتطلع إلى ما يتصل به من ملاسات وتفاصيل .

ويعتبر إيسن من أبرع الكتاب فى هذه الناحية ، ودونكم مثلاً من ذلك فى مسرحية Rosmer Sholm لتروا كيف وفق فى اختيار نقطة بدنها توفيقاً عجيباً ، يرفع الستار فى الفصل الأول عن بهو فى بيت ريفى قديم يدل كل شىء فيه على الهدوء واستقرار الحال . ونرى فى البهو امرأتين تنتظران عودة سيد البيت فى قلق : إحداهما شابة جميلة والثانية خادمة عجوز . تتطلع العجوز من النافذة فتلمح السيد قادماً من بعيد فتصيح قائلة : « يا إلهى إنه سيمر فوق الجسر » .

فتهتز الشابة طرباً لسماع ذلك وتدنو من الشرفة لتتطلع منها كذلك ولكنها لم تلبث أن أصيبت بخيبة أمل حين رأت السيد قد انعطف إلى طريق آخر غير طريق الجسر .

وهنا يثور فضولنا فتساءل كيف استطاع هذا الحادث البسيط الذى يبدو ألا أهمية له أن يثير اهتمام هاتين المرأتين إلى هذا الحد .

ويأتينا الجواب حين ينكشف لنا شيئاً فشيئاً أن لعبور ذلك الجسر أهمية بالغة عند الشابة (ربيكا) وهذا هو اسمها وذلك لأن زوجة السيد (روزمر) وهذا هو اسمه ، قد انتحرت قبل ذلك بأن ألقت بنفسها إلى الدوامة من هذا الجسر وكان لربيكا هذه يد فى دفعها إلى هذا المصير طمعاً فى أن يتزوجها روزمر من بعدها دون أن يعلم إذ ذاك من أمرها شيئاً . وكان روزمر شديد الأسى على زوجته فكان لا يطيق العبور على ذلك الجسر . فلو أنه عبر الجسر ذلك اليوم لكان معنى ذلك عند ربيكا أنه قد سلا زوجته المتوفاة فيقرى أملها فى الظفر به ولكنه لم يفعل فشعرت بخيبة أمل .

- ١٠٢ -

وقد يختار الكاتب نقطة هجومه فى موضع ثم يبدو له أن يختارها فى موضع آخر فيعدل عن الأولى إلى الثانية .

وقد وقعت لى تجربة عجيبة فى هذا الصدد سأقصها عليكم لتروا كيف يضطر الكاتب فى بعض الظروف إلى إجراء تعديلات فى مسرحيته ما كانت تخطر له على بال .

لقد رأيت كيف بدأت مسرحية (سر شهر زاد) بتسلل شهريار إلى مخدع زوجته بدور حيث طفق يشم ثيابها ويضم وسائدها فى لهف والتياح مما يثير الفضول والتساؤل ثم ينكشف شيئاً فشيئاً الباعث له على هذا السلوك الغريب .

ولما عرضت المسرحية على الرقابة تمهيداً لإخراجها اعترض الرقيب على هذا الفصل زاعماً أن فيه شيئاً من الإثارة الجنسية . فناقشته فى ذلك وكانت حجتى أن ما زعمه من وجود الإثارة الجنسية ليس مقصوداً هنا لذاته وإنما لأن الموضوع اقتضاه إذ هو فى صميمه يحس هذه المشكلة الجنسية .

وبعد أخذ ورد وافق الرقيب على إخراج المسرحية بشرط ألا تفتتح بهذا الفصل حتى لا يفاجأ الجمهور بما فيه . وطفقت أفكر فى حل يحقق هذا الشرط دون أن أضطر إلى حذف الفصل الأول أو تعديله فجاء الحل عجباً جداً وهو أن تفتتح المسرحية بالفصل الثانى الذى يرفع الستار فيه عن شهر زاد فى بيت أبيها الوزير وهى ذروة الأزمة إذ كان شهريار قد طلبها لتزف إليه فتلقى نفس المصير الذى لقيته عشرات العذارى قبلها .

أما الفصل الأول فيوضع بعد المشهد الأول من الفصل الأخير على اعتبار أن حوادثه قد وقعت في زمن مضى ، وذلك على طريقة الارتداد إلى الماضي Retrospective .

وأعجب من ذلك أننى لما شاهدت هذه المسرحية ممثلة بهذه الطريقة وجدت أن هذا الوضع الجديد الذى اضطررت إليه اضطراراً قد أكسب المسرحية قوة وتركيزاً لا يعطيها وضعها الأصلى ، وإن أورث موضوعها شيئاً من الغموض يقتضى من الجمهور مزيداً من الجهد فى التأمل والمتابعة .

ولا أستطيع حتى الآن أن أقطع أى الوضعين أفضل لأننى لم أشاهد الوضع الآخر على المسرح .

وقد أوردت لكم هذه التجربة لما فيها من الطرافة ولأثبت لكم أيضاً أن المؤلف المسرحى مهما خيل إليه أنه قد بلغ الغاية فى تخطيط مسرحيته فلا يزال أمامه مجال للنظر والتفكير لعله يهتدى إلى وضع أفضل وأكمل.

الدخول والخروج

قد يظن بعض الناس أن حركة الدخول والخروج للشخص أمر مستقل بذاته لا يدخل فى صميم بناء المسرحية وعلى ذلك يجوز للكاتب أن يدخلهم ويخرجهم كما يشاء حيث يشاء . وهذا خطأ فليس فى المسرحية شئ قائم بذاته لا يخضع لمنطقها العام ولا تقتضى وجوده ضرورة حتمية .

فعندما يدخل الشخص من الشخص أو يخرج لابد أن يكون ذلك لضرورة طبيعية فيشارك في إفصاح الشخصية عن ذاتها ويساعد على نمو الخط الدرامي . والكاتب الذى يدخل شخوصه ويخرجهم دون داع مفهوم وسبب معقول إنما يدل قصوره هذا على أنه لم يعرف شخوصه بعد معرفة عميقة تؤهله للكتابة عنهم .

ولتوضيح هذا لا بأس أن ننظر إلى الدخول والخروج فى مطلع الفصل الأول من (سر شهر زاد) الذى سبقت الإشارة إليه .

فعندما يرفع الستار عن مخدع الملكة نرى شهريار داخلا يتسلل فهذا الدخول المتسلل يفصح عن شخصية شهريار وعن الحالة النفسية التى يعانها مما زادها وضوحاً بعد ذلك لثمة لثياب الملكة وللوسائد التى على سريرها . ثم تدخل الملكة بدور فتراع لوجوده هناك وكانت خارجة من الحمام فلا غرو أن تدخل مخدعها لتزدى ملابسها وتأخذ زينتها ثم لا غرو أن تقبل القهرمان لتساعدها فى الزينة ولكنها لا تدخل بل تظهر عند الباب فقط ثم ترتد خارجة إذ وجدت الملك هناك على غير توقع .

من هذا المثل ترون أن كل دخول وخروج هنا يقتضيه الموقف ويفصح عن هؤلاء الشخوص الثلاثة ويساعد على النمو الدرامي .

التجارب الجديدة فى الكتابة المسرحية

هل يلزم اتباع هذه القواعد التى أشرت إليها لكتابة المسرحية الجيدة ؟ ألا يجوز لكاتب مسرحى أن يخرج عليها ويقوم بتجارب جديدة فى فن المسرحية غير معروفة من قبل ؟

- ١٠٥ -

والجواب على ذلك أن هذه القواعد والأصول لا ينبغي أن يخرج عليها الكاتب المسرحي إذا شعر بالحاجة إلى ذلك ليحقق غرضاً من الأغراض الهامة لا سبيل إلى تحقيقه في رأيه بغير هذه التجربة .

وقد فعل ذلك كثير من كبار الكتاب إذ خرجوا على بعض القواعد التي كانت مرعية في عصورهم ، وهذا شكسبير أصلح مثل لذلك إذ خرج على قانون الوحدات الثلاث . وقد قلنا فيما سبق إن الموضوع ينبغي أن يحدد هو الشكل الملائم للمسرحية .

ومهما يسمح للكاتب من خروج على القواعد والأصول فلن يخرج بأى حال على القواعد الأساسية التي تتلخص فيما يلي :-

١ - نمو الشخصيات عن طريق الصراع .

٢ - طريقة الانتقال التدريجي .

٣ - وجود الفكرة الأساسية الواضحة .

٤ - الوحدة الفنية أو التناغم العام .

الرمزية في المسرحية Symbolism

يوجد نوعان من الرمزية في المسرحية : نوع يقوم على تجسيد المعاني في أشخاص يكونون رموزاً لتلك المعاني وهذا ما يطلقون عليه كلمة Allegory حيث يكون كل شخص في المسرحية وكل حادث وكل شيء رمزاً لمعنى أو لشيء آخر .

ومن هذا القبيل ما فعله بعض الكتاب الروس إذ كتب مسرحية سماها (مسرح الروح) فجعل المسرح ذاته رمزاً للإنسان وجعل الشخصوس الذين يتحركون على المسرح رموزاً للصفات والخلال التي تصطرع فى نفس الإنسان .

وترون كثيراً من هذا النوع فى المسرحيات المدرسية حيث يرمز إلى التاريخ مثلاً بشيخ هرم وقور وإلى مصر بفتاة جميلة وهكذا .

والنوع الثانى هو ما يكون فيه الرمز كلياً عاماً شائعاً فى المسرحية كلها بحيث تكون المسرحية واقعية نابضة بالحياة فى حوادثها وشخصوها كأية مسرحية جيدة . ولكن يكون لها فوق هذه الدلالة الطبيعية دلالة ثانية أدق وأعمق وتقع الدلالة الأولى موقع الصدى من الصوت .

وهذا النوع أفضل وإجاده أصعب ويحىء فى الغالب دون وعى من المؤلف أو قصد ظاهر وإلا ظهر التكلف والتعمل فيه ففسد .

وقد اتفق لى مثل هذا فى (مأساة أوديب) التى كتبها تحت تلك الظروف القاسية على أثر النكبة القومية الكبرى نكبة فلسطين كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى فصل مضى .

وقد سبق تلخيص المسرحية فلأحاول الآن أن أشرح لكم الرمز الذى تدل عليه كما وعدتكم من قبل . وأسارع فأعترف لكم بأن هذه المهمة شاقة على وأنى لست واثقاً فيها من بلوغ ما أريد .

لقد رأيتكم كيف عالجت المسرحية تلك الأسطورة اليونانية علاجاً جديداً بمضمون جديد وعقيدة جديدة تخالف تلك العقيدة اليونانية القديمة التى تجعل الإنسان ألعوبة فى يد القدر وضحية لنزوات الآلهة . ولكن

المسرحية بالرغم من ذلك حافظت على شخوص الأسطورة وحوادثها كما هي في الأصل إلا في بعض التفاصيل الثانوية التي لا تخرج عن إطارها العام ، وإن وضعت لكل حادث من حوادثها تفسيراً يختلف به مدلوله عن مدلوله في الأصل .

إنها في دلالتها الأولى قائمة بذاتها ، متسقة مع نفسها في ذلك المحيط اليوناني القديم دون أن يربطه شيء بمحيطنا العربي أو أى محيط آخر معاصر فالشخوص هي الشخوص والحوادث هي الحوادث والعصر هو العصر . ولئن اختلف التفسير فإن ذلك لا يخرج بموضوع المسرحية عن كونه يونانياً قديماً لا علاقة له بأى شعب آخر أو أى عصر آخر .

ولكنك إذا تأملت فيها وجدت لها دلالة ثانية تعكس واقعنا العربي — وعلى وجه الخصوص الفترة بين حرب فلسطين والثورة المصرية — بدقائقه وتفصيله دون تعيين أو تحديد لهذه الدقائق والتفاصيل من حيث مطابقتها أو مشابقتها لدقائق وتفصيل القصة التي ترونها المسرحية .

لقد خضنا حرب فلسطين بجيوشنا الستة أو السبعة فماذا كانت النتيجة ؟ خسرنا الحرب من حيث كسبتها إسرائيل فأضيفت إلى رقعتها أراض واسعة .

فهل كان ذلك طبعياً اقتضاه ضعف العرب وقوة إسرائيل ؟ أم كانت المسألة كلها مدبرة من قبل ، تواطأ عليها الاستعمار والصهيونية وفي خدمتهما بعض ملوك العرب وزعمائهم لجر الأقطار العربية إلى الحرب حتى تسفر عن هذه النتيجة المقصودة ؟

ومتى بدأ هذا التدبير ؟ ألم يبدأ منذ أعلن بلفور وعده المشؤوم بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ؟

فانظروا الآن إلى قصة المسرحية ألا ترون فيها مشابهة من هذا الذى حدث ؟ لقد أعلن لو كسياس نبوءته الكاذبة قبل مولد أوديب ثم وجه الأحداث نحو تحقيق هذه النبوءة حتى تحققت . وكان أوديب هو الذى سعى بنفسه إلى خوض غمار التجربة ، متحدياً تلك النبوءة حتى وقع فى صميم المأساة طبقاً لخطّة مرسومة لا يدرى هو عنها شيئاً ، تماماً كما سعى العرب إلى خوض غمار الحرب ضد إسرائيل ، متحدين بزعمهم كل القوى التى تناصر إسرائيل حتى وقعوا فى صميم المأساة طبقاً لخطّة مرسومة لا يدرون عنها شيئاً .

وفى حرب فلسطين هدنتان الأولى والثانية أفلا تجدون فى قصة المسرحية مشابهة لهما فى ذهاب أوديب إلى طيبة مرتين : الأولى ليقتل أباه والثانية ليتزوج أمه ؟

والإقطاع الذى كان متحكماً فى مصر وغيرها من البلاد العربية ألم يكن مسئولاً عن نصيبه فى هذه المأساة ، ومأس غيرها كثيرة حتى بلغت قمته فى حريق القاهرة ؟ أفلا تذكركم قصة المسرحية بشيء من ذلك فى الطاعون الذى انتشر فى طيبة ، والذى كان سببه احتجاجان المعبد للأرض الزراعية حتى لم يبق للشعب منها إلا القليل .

وتلك الحركة الدينية التى كانت فى الأصل منار هداية وإرشاد ، ثم انقلبت مطية لبلوغ المطامع الشخصية وأضحت خطراً يهدد البلاد

بالدمار ألا تجدون لها مشابها في معبد دلف الذى تحول من مركز هداية وإشعاع إلى سوق تجارة وأطماع ؟

ومصادرة أملاك المعبد وما تلاها من توزيع الأراضي على شعب طيبة .
ألا يذكركم ذلك بما قامت به الثورة المصرية من المصادرة والتوزيع ؟
ومن الذى قام بذلك فى الأولى ؟ أليس أوديب الذى تجرع غصة المأساة وعانى ذلها وخزيها ؟

ومن الذين قاموا بذلك فى الثانية ؟ اليسوا هم الذين اكتسبوا بحرب فلسطين وعانوا ذل المأساة ؟

ومتى جاء الإنقاذ فى الحالتين ؟ ألم يجرى حين اشتد الكرب وعظم الخطب وبلغت القلوب الحناجر ؟

وحين كانت طيبة ترزح تحت كلاكل الخطب والبلاء ألم يوجد فيها من يدعو إلى استفتاء المعبد ؟ أفلا يوجد فى العرب حتى اليوم من يدعو قومه إلى الالتجاء إلى الأحلاف الاستعمارية ؟

وترزياس الكاهن المطرود الذى وقف مع أوديب فى ساعة الشدة وحشد له الأنصار والشهود ، ودافع عنه أمام محكمة الشعب وكان سبب اندحار لو كسياس وسقوطه ألا يذكركم فى كثير من الوجوه بدولة معروفة وقفت من العرب مثل هذا الموقف ، ودافعت عنهم فى المحافل الدولية ، وكانت سبباً فى اندحار أعدائهم ؟

وهكذا تستطيعون أن تمضوا فى استنباط وجوه الشبه بين هذه المأساة كما صورتها المسرحية ، وبين واقعنا العربى ، لا على أساس الرمز الجزئى الذى يخص كل شخص أو كل حادث فى أحدهما بشخص أو

- ١١٠ -

حادث فى الآخر ، ولكن على طريقة الرمز الكلى الشائع فى المسرحية كلها كما قدمنا .

فقد يرمز الشخص أو الحادث إلى أكثر من شخص أو حادث ، فلو كسياس مثلاً يذكر بالاستعمار من وجهه وبالإقطاع من وجه ثان وبالحركة الدينية الحائدة عن سبيلها من وجه ثالث .

إن الرمز هنا يتذبذب فيمس وتراً هنا ويمس وتراً هناك كالسيمفونية التى يثير توقعها فى نفسك مختلف المشاعر والأحاسيس دون أن تستطيع على التحديد أن تقول : هذه النغمة تثير كذا وكذا من المشاعر ، وهذه النغمة تثير كذا وكذا من الأحاسيس .

فهرس

٤	بدء اشتغالى بالتأليف المسرحى
٦	دراستى للأدب الإنجليزى - تجربة الشعر المرسل
١١	إخناتون ونفرتيتى : مسرحية بالشعر المرسل
١٨	المسرحية الغنائية (الأوبرا)
٢٢	نشأة الفن المسرحى - هل وجدت الدراما عند العرب ...
٢٦	فن المسرحية
٢٧	المأساة قبل الملهاة
٣٣	عناصر التأليف المسرحى (الفكرة الأساسية)
٣٧	الموضوع
٣٩	الكاتب الداعية
٤١	المسرحية والقومية العربية
٤٤	الموضوعات التاريخية والأسطورية
٤٧	الموضوع والفكرة الأساسية
٥٩	الموضوع والفكرة الأساسية (تتمه)
٧٤	رسم الشخصية (التشخيص)
٧٥	الصراع
٧٦	الانتقال التدريجى

- ١١٢ -

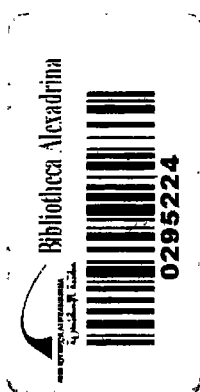
٧٨ الحركة
٨١ الحوار
٨٨ واقعية الحوار
٨٩ الفصحى والعامية
٩٩ البناء أو التخطيط
١٠٠ نقطة الهجوم
١٠٣ الدخول والخروج
١٠٤ التجارب الجديدة
١٠٥ الرمزية فى المسرحية

رقم الإيداع ٧٠٨٢ / ٨٤

الترقيم الدولى ٢ - ٠١٢٤ - ١١ - ٩٧٧


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الناشر
مكتبة مصر
سعيد حورية السحار وشركاه
٢ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٩٠



الثمن ٢٥٠ قرشا

د. رضوان الطنبجي
سعيد حورية السحار وشركاه